2020
1.1.2020

جيمس جويس

الأموات

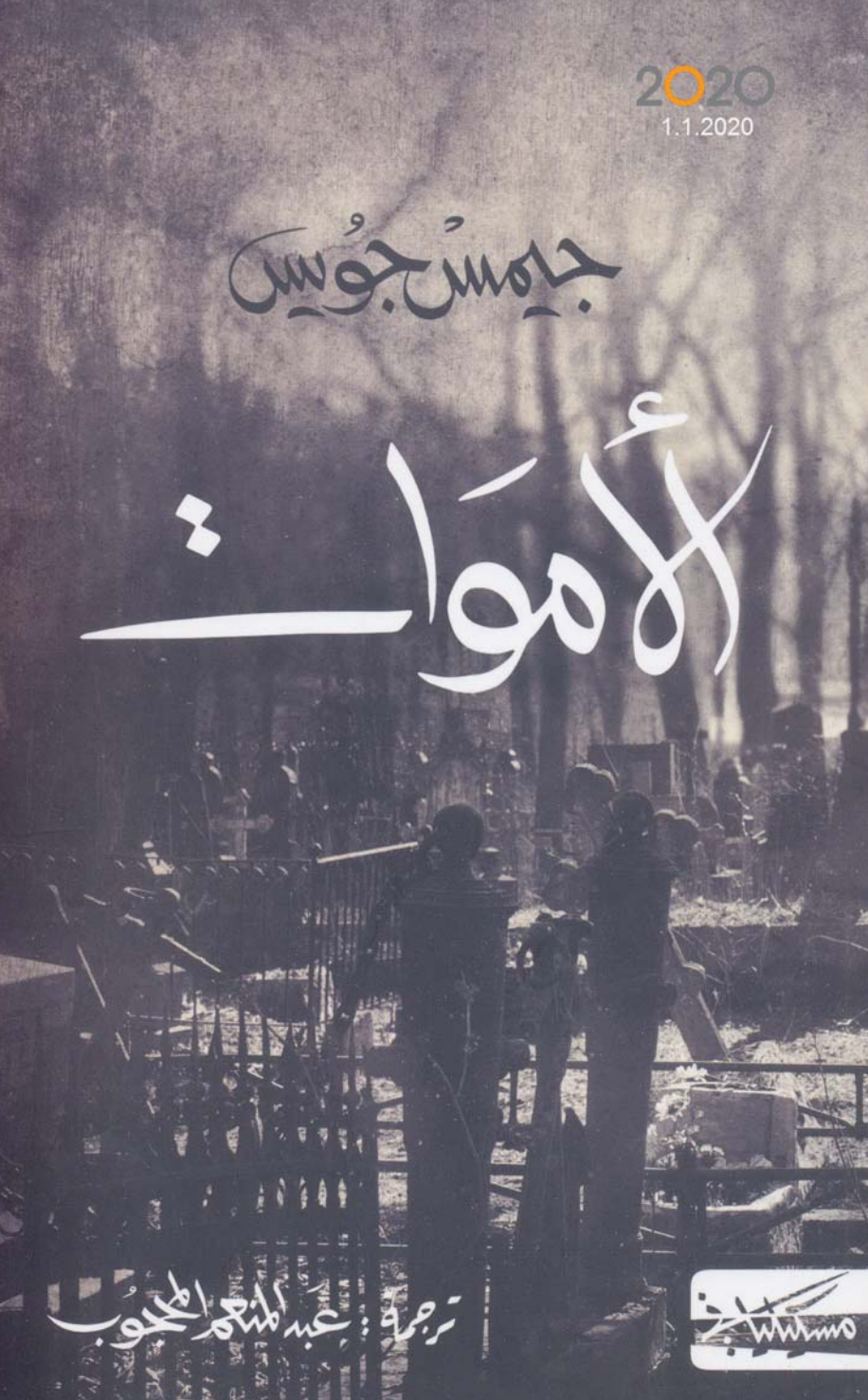

ترجمة: عبد المنعم المحجوب

مسكيلياني

جيمس جويس

الأموات

ترجمة: عبد المنعم المجبور

مراجعة: رمزي بن رحومة

مسكيلياني

عنوان الكتاب الأصليّ

THE DEAD

By James Joyce

الكاتب: جيمس جويس

عنوان الكتاب: الأموات

ترجمة: عبدالمنعم المحجوب

مراجعة وتحرير: رمزي بن رحومة

خط الغلاف: سمير بن قويعة

تصميم الغلاف: محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-24-057-3

الطبعة الأولى: 2019

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيليانى للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

كانت لِيلي، ابنة القيّم، تهرب من خطواتها بأتمّ معنى الكلمة، فما إن تُرافق سيّدًا واحدًا إلى مقصورة المؤن الواقعة خلف المكتب في الطابق الأرضيّ وتساعده على خلع معطفه، حتى يرنّ جرس باب الرّدهة بحدّة مرةً أخرى، فتضطرّ إلى الهرولة على امتداد الممر الخالي لتُدخل ضيفًا آخر. وكان من حسن حظّها أنّها لا تتكفّل بالسيدات أيضًا، لكنّ الآنسة كيت والآنسة جوليا فكّرتا في ذلك وحوّلتا الحمّام في الطابق العلوي إلى غرفة لتغيير ملابس السيدات، لتمكُثا هناك تنمّان وتضحكان وتزجّيان الوقت، وتمشيان الواحدة إثر الأخرى حتى أعلى الدرج، ثم تمعنان النظر أسفله، وتناديان ليلي لسؤالها عمّن جاء.

أمّا حفلة الرّقص التي دأبت الآنستان موركان على إقامتها سنويًّا فلطالما عُدّت حدثًا كبيرًا. إذ كان يؤمّها كلّ من عرفهما، كأعضاء العائلة وأصدقائهم القدامى وأعضاء جوقة جوليا وتلاميذ كيت الذين كبروا بما يكفي وحتّى بعض تلاميذ ماري جين أيضًا. ولم يحدث أن فشلت لهما حفلة قطّ. بل لقد ظلّت تلك الحفلات لسنوات وسنوات تُقام على نحو رائع، حسب ما يتذكّره الجميع. وكانت كيت وجوليا، بعد وفاة شقيقهما بات، قد غادرتا منزل

ستوني باتر[1] وأخذتا ماري جين، ابنة أخيهما الوحيدة، لتعيش معهما في المنزل المعتم الكئيب بجزيرة آشر[2]، في ذاك الجزء العلوي الذي استأجرتاه من السيد فولهام، تاجر الذرة المُقيم بالطابق الأرضي. وقد حدث ذلك منذ ثلاثين عامًا هانئة مرّت وكأنّها يوم واحد. حتّى أنّ ماري جين التي كانت آنذاك فتاة صغيرة ترتدي الملابس القصيرة، أصبحت الآن عماد الأسرة، بفضل عزفها على الأرغن في «طريق هادنغتون»[3]. وهي التي انضمّت إلى الأكاديمية وما انفكّت تُقدّم حفلة التلاميذ للموسيقى كلّ عام في الغرفة العلويّة من رواق الحفلات الموسيقية العتيق[4]. وجلّ تلاميذها هؤلاء من أبناء العائلات الراقية القاطنة بشارعيْ كينغستاون ودالكى[5]. والحقّ أنّ عمّتيها اللتين صارتا مسنّتين قد أدّتا ما عليهما تأديته، فجوليا لا تزال بالرغم من الشيب الذي غزا رأسها تلعب دور مغنية السوبرانو

---

(1) ستوني باتر Stoney Batter: منطقة في الشمال والشمال الغربي من دبلن بالقرب من ميناء نهر ليفي، وتعني «الطريق الحجرية».

(2) . جزيرة آشر Usher: اسم يطلق على منطقة صغيرة، لا على جزيرة، في دبلن على ضفة نهر ليفي.

(3) . طريق هادينغتون Haddington Road: أحد الأحياء الموسرة في دبلن. وقد كانت ماري جين عازفة الأورغن في كنيسة القديسة ماري (مريم) في طريق هادنغتون.

(4) . الأكاديمية أو رواق الحفلات الموسيقية العتيق The Ancient Concert Rooms هو الاسم السابق للأكاديمية الأيرلندية الملكية التي أسّستها جمعية أنتيينت الموسيقية Antient Concerts Society في 1843، وقد غنّى جويس في حفلاتها عندما كان في الثانية والعشرين من عمره.

(5) . خط كينغستاون ودالكى Kingstown and Dalkey line: يمتد خطّ كينغستاون وهو الاسم القديم لما يعرف الآن بـ دون لاوغير (Dun Laoghaire) إلى الجنوب من ميناء دبلن الرئيسي حتّى يلتقي بمنطقة دالكي.

الرئيسية في أوبرا «آدم وحواء»[1]، وكيت المحدودة المقدرة مقارنة بأختها التزمت بتقديم دروسٍ موسيقيّة للمبتدئين على البيانو المربع القديم في الغرفة الخلفية، فيما اضطلعت ليلي ابنة القيّم بمهام الخادمة لهما. ولئن عاشت الأختان حياةً متواضعة، فإنّهما دائمًا ما حرصتا على التنعّم بالأكل الجيّد وتوفير الأفضل من كل شيء: لحم خاصرة البقر بعظمه ذي الشكل الماسي، وشاي الشلنات الثلاثة، وأفضل قناني الجعة الداكنة. ونظرًا لندرة أخطاء ليلي في تنفيذ الأوامر كانت علاقتها بربّات البيت الثلاث جيّدة، فباستثناء حالة القلق المعهودة لدى جوليا وكيت ليس ثمّة ما يستحقّ الذكر، إذ أنّ الأمر الوحيد الذي لم تكونا لتحتملاه هو الإجابات غير المهذّبة.

أمّا في تلك الليلة فقد كان لديهما، بالطبع، سببٌ وجيه للقلق إذ تجاوز الوقت الساعة العاشرة بكثير ولم تظهر أي علامة على مجيء غابرييل وزوجته، بالإضافة إلى خشيتهما الكبيرة من أن يأتي فريدي مالينس ثملًا. فهما لا ترغبان على الإطلاق في أن يراه أيّ من تلاميذ ماري جين وهو تحت تأثير السُّكْر لا سيّما أنّه في تلك الحال يصعب التعامل معه. ولئن كانتا قد تعوّدتا على حضور فريدي مالينس متأخّرًا، فإنّهما تساءلتا عمّا عطّل غابرييل، وهو ما جعلهما تتوجّهان كلّ بضع ثوان إلى سياج الدّرج لتسألا ليلي عن وصول غابرييل أو فريدي.

---

(1) آدم وحواء: أوبرا للمؤلّف الموسيقي الألماني جوهان تايلي لحّنها سنة 1678 وتُعدّ أولى أعماله المعروفة وأهمّها.

«أوه، سيد كونْرُويْ»، قالت ليلي لغابرييل عندما فتحت له الباب، «اعتقدتْ الآنسةُ كيت والآنسة جوليا أنكما لن تأتيا أبدًا، طاب مساؤك، سيدة كونروي».

«أنا أيضًا اعتقدت ذلك»، قال غابرييل ثمّ أضاف: «لكنهما تُغفلان أن زوجتي تستغرق في ارتداء ملابسها ثلاث ساعات كاملة».

وقف على ممسحة الأرجل مكشّطًا الثلج عن جُرمُوقه[1]، وأثناء ذلك قادت ليلي زوجته إلى أسفل الدّرج ونادت:

«آنسة كيت، السّيدة كونروي هنا».

قدِمت كيت وجوليا متهاديتين معًا وهما تنزلان الدّرج المعتم. وبعد أن قبّلت كلّ منهما زوجة غابرييل، وقالتا لها إنّهما ظنّتاها هلكت وها هي حيّة سألتاها عمّا إذا كان غابرييل معها. وإذا به يهتف بهنّ من العتمة:

«هأنذا، سليم كالبريد[2]، خالة كيت! اصعدن. سأتبعكن».

وبينما واصل كشط قدميه بنشاط صعدت النّساء الثلاث إلى الطابق العلويّ باتجاه غرفة ملابس السيدات وهنّ يضحكن. كان هُدْبٌ خفيفٌ من الثلج قد استقرّ على كتفيْ معطفه مثل لحاف، وعلى مقدّمة جرموقه مثل غطاء لأصابع القدمين، وعندما انزلقت أزرار

(1) الجُرمُوق golosh: حذاء إضافي من المطاط يمنع تسّرب الماء يتم ارتداؤه فوق الحذاء العادي.

(2) تعبير شائع عن الصحّة والدّقة، مستقى من فكرة أن البريد يأتي في موعده.

معطفه محدثةً صريرًا تحت طبقة الثلج المتصلّبة، تسرّبت نَفْحةُ هواء بارد عطِرٍ من خارج الأبواب إلى الشقوق والطيّات. ما دفع ليلي إلى سؤاله:

«هل أثلجت مرّة أخرى، سيد كونروي؟».

كانت قد سبقته إلى مقصورة المؤن لمساعدته على خلع معطفه. فابتسم للمقاطع الثلاثة[1] التي نطقت بها لقبه وبقي يتطلّع إليها بُرهة. إنّها فتاة نحيفة وشاحبة البشرة ذات شعر بلون التبن. زادها الغاز المُنبعث من المقصورة شحوبًا. ولقد عرفها غابرييل منذ أن كانت طفلة تجلس أسفلَ الدَّرج وتلعب دور المربّية مع دمية رثّة.

«نعم ليلي، وأعتقد أنها ستظلّ تُثلج طوال الليل».

أجابها ونظر إلى سقف مقصورة المؤن المُهتزّ من وقع الخطى ووطأة جرّها على الأرضية العليا، وبعد أن أنصت برهةً إلى البيانو عاود النظر إلى الفتاة وهي تطوي معطفه بعناية وتضعه في أقصى الرف وقال لها بنبرة ودّية:

«أخبريني، ليلي، هل ما زلت تذهبين إلى المدرسة؟».

«أوه لا، سيّدي، لقد توقّفت عن الذهاب إلى المدرسة هذا العام، ولن أذهب إليها ثانية».

«أوه، إذن، أفترض أننا سنشهد حفل زفافك إلى خطيبك في أحد هذه الأيام الجميلة، أليس كذلك؟».

---

(1) لكي نقرأ لقب كونروي بثلاث مقاطع فإننا نلفظه: كون.أو.روي Con.uh.roy.

قال جملته بمرح ولكنّ الفتاة نظرت إليه من على كتفها، وقالت بمرارة كبيرة:

«كل الرجال متملّقون، هم يسعون فقط إلى ما يستطيعون الحصول عليه منك».

تغيّر وجه غابرييل، وقد شعر بأنه ارتكب خطأً، ودون أن ينظر إليها، ركل جُرمُوقه ونفض حذاءه الجلدي اللامع بنشاط مستخدمًا وشاحه.

كان شابًّا حسن البنية طويلًا بما فيه الكفاية. وإذ اندفع تورّدُ خدّيه صعودًا حتى جبينه، شكّل بضع بقعٍ حمراء باهتة مُبعثرة في غير انتظام؛ وفي الوقت ذاته تألّقت على وجهه الأمرد النظّارة المصقولة ذات الحواف المذهّبة المحيطة بعينيه الرقيقتين القلقتين. أمّا شعره الأسود اللامع فكان مفروقًا من المنتصف ومسرّحًا على شكل تموّجات طويلة إلى خلف أذنيه، وهناك يتجعّد قليلًا تحت الأخدود الذي خلّفته قبّعته.

بعد انتهائه من مسح حذائه اللامع، نهض منتصبًا وشدّ صدريّته على جسمه بإحكام. ثم أخذ عملة معدنيّة بسرعة من جيبه ودسّها في يدي الفتاة قائلًا:

«إنّه وقت عيد الميلاد يا ليلي، أليس كذلك؟ خذي بعض الـ...».

ولمّا كان قد سار بسرعة نحو الباب قاطعته الفتاة وهي تُلاحقه:

«أوه، لا، سيّدي! «حقًّا، يا سيّدي، لا أستطيع أخذها».

«إنّه عيد الميلاد! عيد الميلاد يا ليلي!». قال غابرييل ذلك وهو يُسرع إلى الدرج ملوّحًا بيده في لا مبالاة.

وإذ رأت الفتاة أنه قد صعد الدَّرج، هتفت وراءه قائلةً:

«حسنًا، شكرًا لك يا سيّدي».

انتظر خارجَ باب غرفة الاستقبال ريثما تنتهي رقصة «الفالس»، مُصغيًا لحفيف التنانير على الأرضية وللصوت المتثاقل للأقدام. كان لا يزال يشعر بالارتباك من إجابة الفتاة المريرة المفاجئة. لقد أسبغت عليه كآبةً حاول تبديدها بترتيب أطراف أكمامه وضبط ربطة عنقه. ولم يلبث أن أخذ من جيب صدريته ورقة صغيرة ألقى عليها نظرة مُراجعًا العناوين التي أعدّها لخُطبته. كان متردّدًا بشأن الأبيات التي اقتبسها من روبرت براوننغ[1]، خشية أن يفوق مستواها مستوى إدراك المستمعين. ففي تلك الحال قد تصبح بعض الجمل التي يسهل التعرف عليها سواء أكانت مقتبسة من شكسبير أم من الأغاني خيارًا أفضل. لا سيّما أنّ الأصوات الخشنة التي أحدثتها أعقاب أحذية الرجال وبواطن نعالهم قد ذكّرته باختلاف مستواهم الثقافي عن مُستواه، وبأنّه سيجعل من نفسه مدعاةً للتهكّم إذا ما اقتبس ما لا يستطيعون فهمه من أشعار. حتمًا سوف يعتقدون أنه يتفاخر عليهم

---

(1) Robert Browning روبرت براوننغ (1812–1889): شاعر إنجليزي ڤيكتوري، كتب عنه جيمس جويس مقالًا في ديلي إكسبريس Daily Express سنة 1913، وكان يكنّ له تقديرًا كبيرًا.

بتعليمه المتفوّق، ولسوف يفشل معهم تمامًا كما فشل مع الفتاة في مقصورة المؤن حين استخدم نبرةً خاطئة، فجاء حديثه بأكمله خاطئًا من البداية حتى النهاية. لقد كان فشلًا ذريعًا. وبينما هو كذلك خرجت خالتاه مع زوجته من غرفة ملابس السيدات. وهما امرأتان مسنّتان، قصيرتا القامة، ترتديان ملابس بسيطة، إحداهما وهي الخالة جوليا أطول ببوصة تقريبًا من أختها، ولها شعر مسرَّح على قمّتي أذنيها رماديّ اللون، وكذلك وجهها الكبير المترهّل ولكن مع ظلال أكثر دكانَةً. ولئن كانت متينة البنية وتقف منتصبةً، فإنّ عينيها البطيئتين وشفتيها المنفرجتين أضفت عليها مظهر امرأةٍ لا تعرف أين هي ولا إلى أي مكان تعتزم الذهاب. أمّا الخالة كيت فتبدو أكثر حيويّة، إذ أنّ وجهها الحافل بالتجاعيد والتغضنات، كتفاحة حمراء ذابلة، أكثر صحّةً من وجه أختها، وشعرها المضفور على الطراز القديم نفسه، لم يفقد لونه الشبيه بلون الجوز الناضج.

قبّلتا غابرييل بانبساط. فهو ابن أختهما المفضل، ابن إلين الأخت الكبرى المتوفّاة التي تزوجت ت. ج. كونروي العامل بشركة الميناء وأحواض السّفن[1].

«أخبرتني غريتا أنك لن تستأجر عربة للعودة إلى مونكستاون[2] هذه الليلة، يا غابرييل». قالت الخالة كيت.

---

(1) شركة بورت أند دوكس Port and Docks القديمة، وقد حلّت محلها الآن شركة ميناء دبلن Dublin Port Company.

(2) مونكستاون Monkstown: بلدة تقع إلى الجنوب الشرقي من دبلن.

«كلاّ»، أجابها غابرييل، ثم استطرد وقد التفت إلى زوجته: «لقد اكتفينا من تجربة العام الماضي، أليس كذلك؟ ألا تتذكرين، يا خالة كيت، أيّ برْد نال من غريتا آنذاك؟ لقد ظلّت نوافذ العربة تتقرقع طوال الطريق، وحين مررنا بمريون[1] راحت الرياح الشرقية تهبّ بقوّة. كان ضربًا من المرح أصيبت على إثره غريتا ببرد مريع».

عبست الخالة كيت بشدّة وأومأت برأسها مع كلّ كلمة ثمّ قالت:

«معك حقّ يا غابرييل، معك حقّ بالفعل، فنحن قلّما نتوخّى الحذر».

ولكنّ غابرييل استدرك مازحًا:

«أمّا غريتا الماثلة أمامكم فسوف تذهب مشيًا إلى البيت تحت هذا الثلج إذا سُمح لها».

وبينما طفقت السيدة كونروي تضحك علّقت غريتا على الأمر قائلة:

«لا تهتمي بما يقول، خالة كيت، إنّه حقًا مزعج كبير، سليه عن الظلال الخضراء حول عيني توم، وعن جعله إيّاه يؤدّي تمارين تقوية العضلات، وعن إجباره إيفا على أكل عصيدة الشوفان. يا للطفلة المسكينة! إنها تكره حتى رؤيتها!... أوه، لن تستطيعي أبدًا أن تخمّني ما جعلني أرتديه الآن!».

---

(1) مريون Merrion: بلدة تقع إلى الجنوب من وسط دبلن.

قهقهت غريتا وهي تنظر إلى زوجها وقد راحت عيناه المعجبتان السّعيدتان تمسحانها من ثوبها إلى وجهها وشعرها، وضحكت الخالتان أيضًا، إذ أنّ حرْص غابرييل على زوجته لطالما مثّل لهما موضوعًا للدعابة.

«جرموق!»، قالت السيدة كونروي، ثمّ أضافت: «هذا أحدث ما صدر. عندما تكون الأرض مبتلّة تحت قدميّ يجب عليّ أن أنتعل جرموقي، وحتّى الليلة أرادني أن أنتعله، لكنّني لم أفعل. ولست أشكّ في أنّ الشيء التالي الذي سيشتريه لي سيكون بذلة غوص».

ضحك غابرييل بتوتّر وداعب ربطة عنقه كي يَظهَرَ بمظهر الواثق من نفسه، وفي الآن ذاته كان حجم الخالة كيت يكاد يتضاعف لفرط استمتاعها بتلك النكتة من كلّ قلبها، أمّا الخالة جوليا فلم تلبث ابتسامتها أن تلاشت لتتركّز عيناها الجامدتان على وجه ابن أخيها، وتسأله بعد برهة:

«وما هو الجرموق يا غابرييل؟».

«الجرموق، جوليا!»، هتفت بها شقيقتها، «يا إلهي، ألا تعرفين ما هو الجرموق؟ أنت تلبسينه فوق... فوق حذائك، أليس كذلك غريتا؟».

«أجل»، أجابت السيدة كونروي، «شيء من قبيل الـغوتا-برشا[1]. وكلّ منّا لديه زوج من هذه الأحذية الآن. فغابرييل يقول إنّ الجميع في القارة ينتعلونها».

(1) «غوتا-برشا» Gutta-percha، مطاط طبيعي يستخرج من أشجار المطّاط في ماليزيا.

«أوه، في القارة!»، غمغمت الخالة جوليا، وهي تهزّ رأسها ببطء.

عقد غابرييل حاجبيه، وقال بلهجة يشوبها الغضب:

«هو ليس شيئًا رائعًا، ولكنّ غريتا تعتقد أنه مضحك جدًا، لأنه يُذكّرها بفرقة المنشدين السّود».[1]

«لكن أخبرني يا غابرييل»، قالت الخالة كيت مستفهمة بكلّ لباقة «طبعًا أنتما منشغلان بأمر غرفتكما، فقد قالت لي غريتا...».

«أوه، الغرفة ممتازة، لقد حجزت واحدةً في غريشام». قاطعها غابرييل موضّحًا.

«بالتأكيد» صرّحت الخالة كيت ثمّ استطردت: «هذا أفضل ما يمكن القيام به. والأطفال يا غريتا، ألست قلقة بشأنهم؟».

«أوه، إنّها ليلة واحدة، وزيادة على ذلك فإنّ بيسي سوف تعتني بهم».

«بالتأكيد»، قالت الخالة كيت مرة أخرى، «كم هو مريح أن تكون لديكِ فتاة مثلها، فتاة يمكنك الاعتماد عليها. انظري إلى ليلي مثلًا، حقًّا لا أعرف ما الذي أصابها مؤخرًا. ما عادت هي الفتاة التي أعرفها على الإطلاق».

---

(1) Christy Minstrels فرقة من المنشدين السّود أسّسها الموسيقي والمغني الأمريكي إدوين كريستي E. P. Christy عام 1843.

كان غابرييل على وشك أن يسأل خالته بعض الأسئلة عن الموضوع ذاته، لكنّها سكتت فجأة ولبثت تحدّق في أختها وهي تهبط الدرج وقد اشرأبّت بعنقها فوق سياجه ثمّ سألت بنبرة يشوبها القلق:

«ولكن، قولا لي إلى أين تذهب جوليا؟... جوليا! جوليا! إلى أين تذهبين؟».

ولمّا كانت جوليا قد نزلت بسرعة حتى منتصف الدرج، فإنّها عادت وأعلنت برقّة:

«فريدي هنا».

في اللحظة نفسها أكّد التّصفيق المُتعالي والكبسة الختاميّة لعازف البيانو على آلته انتهاء رقصة الفالس. وما إن فُتح باب غرفة الاستقبال من الداخل ليخرج منه بعض الأزواج حتّى سحبت الخالة كيت غابرييل جانبًا على عجل وهمست في أذنه:

«تكرّم يا غابرييل بالنزول، والتأكّد من أنّه على ما يرام، وإن وجدته ثملًا فلا تسمح له بالصعود. أنا متأكّدة من أنّه ثمل. متأكّدة من أنّه كذلك».

تقدّم غابرييل نحو الدرج وتنصّت عبر سياجه. وإذ تناهى إليه صوت شخصين يتحدثان في مقصورة المؤن، وتبيّن ضحك فريدي مالينس، هبط الدرجَ محدثًا بعض الصخب.

«من المريح فعلًا أن غابرييل موجود هنا». قالت الخالة كيت

للسيدة كونروي ثمّ أضافت: «أشعر دائمًا براحة البال عندما يكون موجودًا... جوليا، ها هما الآنسة دالي والآنسة پاور، وهما تحتاجان إلى بعض المرطّبات بلا شكّ.... شكرًا لموسيقى الفالس الجميلة يا آنسة دالي، لقد منحتنا وقتًا ممتعًا».

في الأثناء مرّ أمامها رجل طويل ذو وجه متغضّن وبشرة داكنة، وشارب مشذّب خطَّه الشيب وبرفقته الفتاة التي شاركته الرقص وهتف متسائلًا:

«وهل لنا نحن أيضًا في بعض المرطبات، يا آنسة موركان!».

فما كان من الخالة كيت إلاّ أن ردّت باختصار: «جوليا، هو ذا السيد براون وبرفقته الآنسة فورلونغ. اصطحبيهما يا جوليا، مع الآنسة دالي والآنسة پاور».

«أنا الفارس الراعي للسيدات»، قال السيد براون ثمّ زمّ شفتيه حتى انتصب شعر شاربه، وابتسم بسمة زادت وجهه تجعّدًا وهو يضيف: «أنت تعرفين، يا آنسة موركان، إنّ السّرّ في غرامهنّ الشديد بي هو...».

لم ينه عبارته، فحالما لاحظ أنّ الخالة كيت لم تكن تنصت إليه، قاد السيّدات الشابّات الثلاث إلى الغرفة الخلفيّة. وفي وسط تلك الغرفة كانت ثمّة طاولتان مربّعتان متلاصقتان من طرفيهما، انهمكت الخالة جوليا والقيّم في مدّ مفرش كبير فوقهما وتسريحه، ونُضد اصطفّت فوقه أطباقٌ وصحون وأكواب وحزم سكاكين وشوَك وملاعق،

بالإضافة إلى البيانو المغلق الذي وقعت الاستفادة من جزئه العلويّ المربّع بأن وُضعت على سطحه اللحوم والحلويّات، وعند نُضد أصغر من الأوّل في إحدى الزوايا كان ثمّة شابان واقفان يشربان الجعة المرّة.[1]

تقدّم السيد براون السيدات اللواتي معه إلى هناك ودعاهن جميعًا بمرح إلى احتساء نخب خاص بالسيدات ساخن وحلو ومركّز، وإذ أجبنه بأنّهن لا يشربن البتّة أيّ شيء قويّ التأثير، فتح لهن ثلاث زجاجات من عصير الليمون، ثم طلب من أحد الشبان أن يتنحّى جانبًا، وأمسك بدورق الشراب وصبّ لنفسه قدرًا لا بأس به من الويسكي بينما راح الشّابان يتطلّعان إليه باحترام وهو يرتشف رشفة الاختبار.[2] ويقول مُبتسماً:

«أعنّي يا إلهي، إنها أوامر الطبيب».

انفرجت أساريره المتغضّنة عن ابتسامة عريضة، وضحكت السيّدات الشابّات الثلاث ضحكات ذات صدى موسيقي لمزاحه وهنّ يتمايلن بأجسادهنّ وأكتافهنّ لا تكفّ عن الاهتزاز. ثمّ خاطبته أجرؤهن قائلة:

«أوه، كفى يا سيّد براون، أنا متأكّدة من أنّ الطبيب لم يأمر بأيّ شيء من هذا القبيل».

ارتشف السيد براون رشفة أخرى من الويسكي وقال، بأسلوب

(1) الجعة المرّة hop-bitters: شراب كحولي ذو نكهة مريرة يستخدم عادةً كمُهضّم.
(2) رشفة الاختبار trial sip: رشفة أولى لمعرفة مذاق الشراب.

فيه محاكاة واضحة:

«يا إلهي، ولكنّكنّ تعلمن، أنّي مثل السيدة كاسيدي التي اشتهرت بقولها: هيّا يا ماري غرايمس[1]، إذا لم آخذه، فلْتجعليني أفعل، فأنا أشعر بأنني أحتاجه».

كان وجهه المحموم قد اقترب منهنّ في حميمية مُفرطة، وهو يتحدّث بلهجة دبلنيّة مبالغ فيها، ما جعل السيدات الشابات، يتّفقن ضمنيًّا على مواجهة حديثه بالصمت. ثمّ لم تلبث الآنسةُ فيرلونغ - وهي واحدة من تلميذات ماري جين- أن سألت الآنسةَ دالي عن اسم الفالس الجميل الذي عزفته؛ وإذ لاحظ السيد براون أنهنّ تجاهلنه سارع بالالتفات إلى الشابين اللذين أبديَا له تقديرًا أكبر.

وأثناء ذلك دخلت إلى الغرفة امرأة شابّة ذات وجه مُتورّد، وثوب بنفسجيّ، وهي تصفّق بيديها في انفعال هاتفة:

«رباعيّات، خذوا أماكنكم من أجل الرّباعيّات!».[2]

فصاحت الخالة كيت وهي تقترب منها:

«لا بدّ من سيّدين وثلاث سيّدات، يا ماري جين!».

«أوه، ها هما السيد بيرغن والسيّد كيريغان»، قالت ماري جين واستطردت: «سيد كريغان، هل تأخذ الآنسة پاور؟ آنسة فيرلونغ،

(1) السيدة كاسيدي Mme Cassidy وماري غرايمس Mary Grimes أو ماري القذرة شخصيتان مجهولتان، ربما كانتا مدار حكاية طريفة في دبلن إبان زمن كتابة القصة، وربّما هما من ابتكار جويس لإضفاء طابع مسرحي على حديث السيد براون.

(2) الرباعيّة Quadrille: رقصة يؤدّيها أربعة أزواج.

هل لي أن أقترح عليك السيّد بيرغن رفيقًا؟.. وها إنّنا قد بلغنا المراد».

«ثلاث سيدات، يا ماري جين»، كرّرت الخالة كيت.

وبينما انشغل السيدان الشّابّان بسؤال السّيدتين عمّا إذا كانتا سعيدتين بمرافقتهما، التفتت ماري جين إلى الآنسة دالي وقالت:

«أوه، آنسة دالي، أنت حقًا رائعة، إذ عزفت للرقصتين الأخيرتين، ولكنّنا في هذه اللّيلة تنقصنا السيدات على نحو صريح».

«لست أبالي لذلك، آنسة موركان».

«لكن لديّ رفيق لطيف لك، إنّه السيد بارتل دارسي، الصدّاح الأوبرالي[1]. سأجعله يغني لاحقًا، دبلن كلّها تمتدحه».

«صوت جميل، جميل جدًّا!»، أكّدت عمّتها كيت.

بعد أن عُزفت المقدمة الموسيقيّة على البيانو مرّتين للزوج الأوّل من الراقصين قادت ماري جين تلاميذها بسرعة إلى خارج الغرفة. وما كادوا يُغادرون حتى راحت عمّتها جوليا تتجوّل في الغرفة ببطء، متطلّعة خلفها إلى شيءٍ ما.

«ما الأمر يا جوليا؟ من هذا؟» سألتها كيت بنفاد صبر.

التفتت جوليا إلى أختها وفي يديها حزمة من مناديل المائدة ولئن فاجأها السؤال فإنّها قالت ببساطة:

---

(1) الصدّاح Tenor: المغنّي الذي يتميز بأعلى الأصوات في الأداء الأوبرالي.

«إنّه فريدي ليس إلاّ يا كيت، ومعه غابرييل».

خلفها تمامًا كان من الممكن رؤية غابرييل مباشرة وهو يرشد فريدي مالينس إلى بسْطَة الدَّرج. وفريدي هذا كهل في حوالي الأربعين يماثل غابرييل حجمًا وبنية، مع إضافة كتفين مُقبّبتين للغاية. أمّا وجهه فمُكتنز ولكنْ شاحب لا تشوبه الحمرة إلاّ في شحمتي أذنيه المتدلّيتين وعلى جانبي أنفه العريضين. والحقّ أنّ ملامحه في العموم خشنة: أنفٌ كليل، وجبينٌ محدّبٌ ينزّ باستمرار، وشفتان مكتنزتان ناتئتان، وعينان مُحاطتان بجفنين ثقيلين جعلتاه -بالإضافة إلى شعره الخفيف الأشعث- يبدو كالوَسْنان. كان يُقهقه بنبرة حادّة تفاعلًا مع قصة فرغ لتوّه من روايتها لغابرييل عند الدرج حاكًّا في الآن ذاته عينه اليسرى بمعصم يده اليسرى.

«مساء الخير يا فريدي»، قالت الخالة جوليا.

بادل فريدي مالينس الآنستين موركان التحية ذاتها بطريقة بدت عابرة بسبب تهدّج صوته المعتاد، وإذ انتبه إلى أنّ السيد براون يبتسم له بشفتين منفرجتين بالقرب من النضد، عبر الغرفة بساقين راجفتين وبدأ يكرّر بصوت خفيض القصةَ التي كان قد أسمعها لغابرييل. وعندئذ سألت الخالة كيت غابرييل: «إنه ليس في حال سيئة جدًا، أليس كذلك؟».

رفع ابن اختها حاجبيه الداكنين بسرعة، وأجاب:

«أوه، لا، إنّه حتّى يكاد لا أحد يلاحظه».

«ولكنّه رفيق فظيع، أليس كذلك؟! لقد أخذت منه أمّه المسكينة عهدًا بأن يُحافظ على اتزانه في ليلة رأس السنة... هلمّ بنا يا غابرييل إلى غرفة الاستقبال».

وقبل أن تغادر الغرفة مع ابن اختها، أشارت إلى السيد براون بعبوسٍ محرّكة سبّابتها يمينًا ويسارًا على سبيل التحذير، فأومأ برأسه مجيبًا، ثمّ ابتعدت وهي تقول لفريدي مالينس:

«حسنًا تيدي، سأذهب وأسكب لك كوبًا رائعًا من عصير الليمون لينعشكَ».

كان فريدي مالينس على وشك بلوغ ذروة قصّته فلم يجد بُدًّا من التلويح لها بإشارة جانبيّة في نفاد صبر، لكن السيد براون نبّهه إلى فوضى ما يرتديه من ثياب، ثمّ سكب له كوبًا كاملًا من المياه الغازيّة وناوله إيّاه، فتقبّلته يد فريدي اليسرى آليًا، بينما انهمكت يده اليمنى في ترتيب ثيابه. ولحظة كان السيد براون يسكب لنفسه كأسا من الويسكي وقد تجعّد وجهه مرةً أخرى بفعل المَرَح، غرق فريدي مالينس في قهقهة شابتها حشرجة ناتجة عن التهاب الحنجرة، قبل أن يصل إلى ذروة قصته، ثمّ نحّى الكوب الفائض جانبًا دون أن يتذوّقه، وعاد إلى حكّ عينه اليسرى بمعصمه الأيسر، معيدًا كلمات عبارته الأخيرة بقدر ما يسمح له به توقّفه عن الضحك.

لم يستطع غابرييل متابعة الإصغاء إلى ماري جين وهي تؤدّي معزوفتها المليئة بالتعرّجات والمقاطع الصعبة مُغرقة غرفة الاستقبال في الصمت. صحيحٌ أنّه يُحبّ الموسيقى، ولكن الجزء الذي كانت

ماري تعزفه لا يحتوي على نغم مميَّز يفضّله، بل إنّه يشكّ في احتوائه على أيّ نغم مميَّز لدى المستمعين الآخرين، مع أنّهم قد توسّلوا إليها لتعزف لهم شيئًا مّا.

خرج أربعة شبّان، كانوا قد جاءوا من غرفة المرطّبات ووقفوا عند المدخل لسماع صوت البيانو، وبعد بضع دقائق انسحبوا بهدوء كلّ اثنين معًا. أمّا الشخصان الوحيدان اللذان بدوَا متابعين للموسيقى فهما ماري جين نفسها، بيديها المتسابقتين على امتداد لوحة المفاتيح والمرتفعتين عنها عند الوقفات مثل يدي كاهنة تلقي لعناتها الخاطفة، والخالة كيت المُتّكئة على كوعها لتقلب الصّفحة.

وإذ أُرهقت عينا غابرييل من انعكاس أضواء الثُريّا على الأرضيّة المصقولة بشمع العسل، راحتا تمسحان الجدار الذي يعلو البيانو. كان مزدانًا بلوحةٍ لمشهد الشرفة في مسرحيّة روميو وجولييت وبجوارها لوحة لمصرع ابني ادوارد الرابع في البرج، ذاك البرج الذي جسّدته الخالة جوليا بالصوف الأحمر والأزرق والبنّي وهي فتاة صغيرة. ولا شكّ في أنّ المدرسة التي تردّدت عليها أيّام طفولتها كانت تُعلّم الفتيات مثل ذلك النوع من البراعة اليدويّة لمدّة عامٍ كاملٍ، حتّى إنّ والدة غابرييل قد خاطت له في واحدٍ من أعياد ميلاده صدريّة من الحرير الأرجواني مبطّنةً بحرير بنّي ومرسومًا عليها رؤوس ثعالب صغيرة أمّا أزرارها فمستديرة وفي لون التوت. وإنّه لمن الغريب أن لم تكن ذات موهبة موسيقيّة وهي التي اعتادت الخالة كيت تسميتها «العقل الخاص بعائلة موركان». والحقّ أنّ

كيت وجوليا كثيرًا ما أبدتا فخرهما بأختهما الجادّة الوقورة. كانت ثمّة صورة لها تنتصب أمام مرآة طويلة تجسّد جلوسها وعلى ركبتيها كتاب مفتوح وهي تُبيّن شيئًا مّا داخله لقسطنطين المنحني أمام قدميها وقد ارتدى زيًّا حربيًّا. إنّها هي من اختار أسماء أبنائها، لفرط تمسّكها بمقوّمات الحياة العائليّة، وبفضلها أصبح قسطنطين راعي الأبرشية في بالبريغان[1]، وبفضلها أيضًا تحصّل غابرييل على شهادته من الجامعة الملكيّة. مرّ طيفٌ أمام وجه غابرييل وهو يسترجع معارضتها العنيدة لزواجه، لا سيّما أنّ بعضًا من العبارات المحرجة التي استخدمتها لا تزال عالقة بذاكرته. ومنها وصفها لغريتا مرّة بأنّها فتاة ريفيّة انتهازيّة وهو أمر خاطئ تمامًا. فغريتا هي التي رعتها خلال مرضها الأخير الطويل في منزلهم بمونكستاون.

كانت ماري جين على وشك الانتهاء من مقطوعتها، ولقد أدرك ذلك من إعادة عزفها اللحن الافتتاحي مضيفة إليه سلسلة من التنويعات قبل كلّ فاصلة موسيقيّة. وفيما هو ينتظر النهاية خمد الاستياء في قلبه، ثمّ انتهت المقطوعة بحزمة رعشات نغميّة حادّة متبوعة بائتلاف نوتات جهير. حُيّت ماري جين بتصفيق حارّ احمرّ له وجهها خجلًا وهي تختم معزوفتها بتوتّر، ثم تسرع خارجةً من الغرفة. كان التصفيق الأكثر قوّة مأتاه الشبّان الأربعة عند المدخل، وهم الذين ذهبوا إلى غرفة المرطّبات في بداية المقطوعة ولم يعودوا منها إلاّ عندما توقّف البيانو.

---

(1) . بالبريغان Balbriggan : مدينة في شمال شرق أيرلندا.

بتمام ترتيب الرقصات الرباعيّة وجد غابرييل نفسه يرافق الآنسة إيڤورز، وهي سيّدة شابّة متحرّرةً وثرثارة ذات وجه منمَّش وعينين بنيّتين جاحظتين. كان صدارها مُلتئم الرقبة، أمّا الرّشْقة[1] الكبيرة التي ثبّتتها على الجزء الأماميّ من ياقتها فكانت تحمل رسمًا وشعارًا أيرلنديين.

وما إن أخذا مكانيهما حتّى قالت فجأة:

«لديّ غراب سأنتفه معك[2]».

«معي؟»

أومأت برأسها على نحو جادّ.

«ما الأمر؟». استفسر غابرييل مبتسمًا لأسلوبها الرسمي.

«من هو غ. ك؟». سألته الآنسة إيڤورز وهي تمعن فيه النظر.

تغيّرت سحنة غابرييل وهمّ بعقد حاجبيه مُبديًا عدم الفهم لولا أنّها قالت بفظاظة:

«أوه، يا لـلبراءة الطاغية! لقد اكتشفت أنّك تكتب للديلي اكسبرس[3]. قل لي، ألا تخجل من نفسك؟».

---

(1) الرّشقة هي البروش، أو دبّوس الزينة، وقد كانت الرشقات الوطنية منتشرة في أيرلندا منذ نهايات القرن التاسع عشر.

(2) مثلٌ أيرلندي للدلالة على ضرورة الحديث عن أمر يدعو للقلق أو الغضب.

(3) ديلي اكسبرس The Daily Express: صحيفة رسمية مؤيدة لبريطانيا، اعتاد جويس أن ينشر فيها بين 1902–1904.

«ولماذا أخجل من نفسي؟»، تساءل غابرييل، ورمّش عينيه محاولًا أن يبتسم.

«حسنٌ، أنا أخجل منك»، قالت الآنسة إيڤورز بصراحة وأضافت: «ما دُمت تكتب لصحيفة كهذه. لم أتخيّل قطّ أنّك بريتوني غربي[1]».

ظهرت نظرةُ حيرةٍ على وجه غابرييل. صحيح أنّه كان يكتب عمودًا أدبيًّا كل يوم أربعاء في صحيفة ديلي اكسبرس، ويتقاضى عليه خمسة عشر شلنًا لكنّ ذلك لا يجعله بريتونيًّا غربيًّا بكل تأكيد. فهو في أغلب الأحيان كان يسعد بالكتب التي يتلقّاها لكتابة عروض عنها أكثر من سعادته بالشيك الزهيد. لقد أحبّ تحسّس الأغلفة وتقليب صفحات الكتب المطبوعة حديثًا، ودأب في كلّ يوم تقريبًا -حال انتهائه من ساعات الدرس في الكلّية- أن يمسح الأرصفة باتجاه بائعي الكتب المستعملة، إلى «هكي» على ممرّ باتشلور، وإلى «ويب» أو «ماسي» على رصيف آستون، وإلى «أوكلوهيسي»[2] في الشارع الفرعي. لم يكن يعرف كيف يواجه اتهامها، أراد أن يقول إنّ الأدب فوق السياسة، لكنّهما كانا صديقين لسنوات عديدة وكانت حياتاهما المهنيّتان تمضيان بالتوازي، أولًا في الجامعة، ثم كمُدرّسيْن.

---

(1) بريتوني غربي West Briton: تعبير ازدرائي يستعمله الوطنيون الأيرلنديون للحديث عن الأيرلنديين الموالين لبريطانيا، فأيرلندا تقع غرب بريطانيا، ويقابل صفة البريتوني الغربي صفة أخرى هي البريتوني الشرقي، أي الذي ينتمي لإقليم باسم بريتونيا بشرق فرنسا.

(2) هكيHickey، ويب Webb، ماسي Massey، أوكلوهيسي O'Clohissey: أسماء مكتبات على امتداد الأرصفة المحاذية لنهر ليفي بوسط دبلن.

لم يستطع المخاطرة معها بعبارة مبالغ فيها، فاستمرّ يطرف عينيه محاولًا الابتسام ثمّ غمغم على نحو متقطّع أنه لم يرَ شيئًا سياسيًّا في كتابة عروضٍ عن الكتب.

وعندما جاء دورهما ليعبرا[1] كان لا يزال متحيّرًا شارد الذهن. وعلى الفور أمسكت الآنسة إيڤورز يده بقبضة دافئة وقالت بنبرة ودّ ناعمة:

«بالطبع، كنت أمزح فقط. هيّا، لنعبر الآن».

وبانضمام أحدهما إلى الآخر مُجدّدًا راحت إيڤورز تتحدّث عن مسألة الجامعة[2] ما أشعر غابرييل بارتياح أكبر. كان صديقٌ لها قد أراها مقال غابرييل عن قصائد براوننغ، وبذلك اكتشفت سرّه الخبيء، وأُعجبت بتحليله أيّما إعجاب. أمّا في تلك اللحظة وهي تراقصه فقد قالت فجأة:

«سيد كونروي، أيمكنك أن ترافقنا في رحلة إلى جزر آران[3] هذا الصيف؟ سنبقى هناك شهرًا كاملًا. سيكون الجوّ رائعًا في الأطلسي. يجب أن تأتي، فالسيد كلانسي سوف يحضر، وكذلك

(1) العبور هو الحركة الأولى للراقصين.

(2) المراد بـ «مسألة الجامعة» University Question هو ذاك الجدل الذي قام في أيرلندا مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، بخصوص نظام التعليم الذي يجب أن ينخرط فيه الطلاب الكاثوليكيّون، وما إذا كان يشمل الطالبات من الإناث اللواتي تم قبولهن للدراسة سنة 1903، أي قبل أن تسمح بريطانيا البروتستانتية بذلك في جامعاتها. يذكر أن جويس كان قد نشر كرّاسًا عن هذه المسألة من الناحية الأدبية سنة 1901.

(3) تعتبر جزر آران Aran Isles رمزًا وطنيًّا للأيرلنديين وتمثّل قلب الغايلية Gaelic كلغة قومية.

السيد كيلكلي وكاثلين كيرني. وسيكون جيّدًا لغريتا أن تأتي هي أيضًا، إنها من كوناكت[1]، أليس كذلك؟».

«أهلها من هناك». قال غابرييل باقتضاب.

«لكنّك سوف تأتي، أليس كذلك؟»، قالت الآنسة إيڤورز، وهي تضغط بيدها الدافئة على ذراعه في لهفة واضحة.

«الحقيقة، لقد رتّبت توًّا للذهاب...».

«إلى أين؟»، قاطعته الآنسة إيڤورز مُستفهمة.

«حسنًا، أنت تعلمين أنّي أذهب كلّ عام في جولة بالدرّاجة مع بعض الرفاق، لذا...».

«لكن إلى أين؟»، سألت الآنسة إيڤورز.

«حسنًا، نحن نذهب عادة إلى فرنسا أو بلجيكا، وأحيانًا إلى ألمانيا». قال غابرييل مرتبكًا.

«ولماذا تذهب إلى فرنسا وبلجيكا بدلًا من زيارة وطنك؟».

«حسنًا، من ناحية، للبقاء على اتصال باللغات الأخرى، ومن ناحية ثانية بُغية التغيير».

«أليس الأمثل أن تبقى على اتّصال بلغتك الخاصّة: الأيرلندية؟»، سألته الآنسة إيڤورز.

---

(1) كوناكت Connacht: إحدى مقاطعات أيرلندا الأربعة، وتقع في الجنوب الغربي، وهي تضم ريف غالواي الذي تعود إليه أصول غريتا. وحريّ بالذكر أنّ أصول نورا، زوجة جويس تعود إلى هذا الريف أيضًا.

«حسنًا»، في ما يتعلّق بذلك، أنت تعرفين أنّ الأيرلندية ليست لغتي».

التفتَ مَنْ بجوارهما لمتابعة الاستجواب، فنظر غابرييل إلى اليمين ثمّ إلى اليسار متوتّرًا، وحاول أن يحافظ على مرحه في تلك المحنة التي احمرّ لها جبينه أمّا الآنسة إيڤورز فاستطردت مُتسائلة:

«أليس لك وطن لتزوره؟ أنت لا تعرف شيئًا عن شعبك وعن بلدك؟».

«أوه، كي أكون صادقًا، لقد سئمت بلدي، سئمته!». ردّ غابرييل بحدّة على نحو مفاجئ.

«لماذا؟».

وإذ لم يجب غابرييل، وقد اختنق بردّه السابق. كرّرت الآنسة إيڤورز سؤالها.

«لماذا؟».

كان عليهما أن يخطوَا معًا للزيارة[1]، وبما أنّه لم يجبها، قالت له بحرارة:

«طبعًا، لا إجابة لديك».

حاول غابرييل إخفاء انفعاله بالمشاركة في الرقص بحيويّة كبيرة، متجنّبًا عينيها لِما رآه من تعبير فظّ على وجهها. لكن عندما

(1) الزيارة هي إحدى مراحل رقصة الكوادريل، وفيها يستبدل كلّ ثنائي رفيقته بأخرى.

تقابلا في السلسلة الطويلة[1] فوجئ بها تضغط على يده بقوّة، وتنظر إليه متسائلةً لبرهة حتى ابتسم لها. وحين أوشكت السلسلة أن تبدأ من جديد، وقفت على أطراف أصابعها وهمست في أذنه:

«بريتوني غربي!».

بعد انتهاء فقرة الرقص، انزوى غابرييل في ركن ناء من الغرفة، حيث تجلس والدة فريدي مالينس وهي عجوز مكتنزة واهنة، ذات شعر أبيض وصوت متهدّج مثل صوت ابنها مع شيء من التلعثم. ولقد أُحيطت علمًا بوجود فريدي وبأنّه على ما يرام تقريبًا. ولمّا سألها غابرييل عمّا إذا كانت رحلتها جيّدة، لعلمه أنّها تعيش مع ابنتها المتزوّجة في غلاسكو وتأتي إلى دبلن في زيارة سنويّة، أكّدت بهدوء أنّها قامت برحلة رائعة، وأن القبطان اهتمّ بها للغاية، ثمّ أسهبت في الحديث عن البيت الجميل الذي تعيش فيه ابنتها في غلاسكو، وعن جميع أصدقائهم هناك. وبينما راح لسانها يثرثر حاول غابرييل أن يُبعد عن ذهنه أيّ ذكرى للحدث غير السّار الذي تسبّبت فيه الآنسة إيڤورز، صحيح أن تلك الفتاة، أو المرأة، أو أيًّا كانت تسميتها، بدت متحمسةً للغاية، لكن من الضروريّ في كلّ الأمور أن يتمّ اختيار الوقت المناسب. ربما ما كان عليه أن يجيبها بتلك الطريقة، لكنّ ذلك لا يمنحها الحق في أن تصفه بالبريتوني الغربي أمام الناس، حتى على سبيل المزاح. لقد حاولت أن تجعله يبدو سخيفًا أمام الآخرين، وهي تعتصره بأسئلتها محدّقةً فيه بعينيها الشبيهتين بعيني الأرنب.

(1) السلسلة الطويلة Long Chain: إحدى مراحل الرقصة.

وبينما هو على تلك الحال رأى زوجته تشقّ طريقها إليه من بين الأزواج المنهمكين في رقصة الفالس، حتّى إذا وصلت إليه أسرّت له في أذنه:

«غابرييل، الخالة كيت تريد أن تعرف هل ستقطع الإوزّة كالمعتاد أم لا؟ فالآنسة دالي سوف تقطع لحم الخنزير، وأنا سأهتمّ بكعكة البودينغ».

«حسنًا». قال غابرييل.

«سوف ترسل الأصغر سنًّا أولًا حالما ينتهي هذا الفالس ويتسنّى لنا استعمال الطاولة».

«هل كنت ترقصين؟» سألها غابرييل.

«طبعًا. ألم ترني؟ لكن قُلْ لي، ما موضوع مشاحنتك مع مولي إيڤورز؟».

«لم نتشاحن. لماذا؟ هل قالت ذلك؟».

«مشاحنة أو شيء من هذا القبيل. أنا أسعى لجعل السيد دارسي يغنّي. ولكنّي أعتقد أنّه مغرور حتّى الانتفاخ».

«لم نتشاحن»، صرّح غابرييل بلا مبالاة ثمّ أضاف موضّحًا: «كلّ ما هناك أنّها أرادت منّي أن أذهب في رحلة إلى غرب أيرلندا ولم أوافق».

شبكت زوجته يديها بحماس وقفزت قفزة صغيرة وهي تهتف:

«أوه، هيّا يا غابرييل، أحبّ أن أرى غالواي مرةً أخرى».

«يمكنك الذهاب إن كان ذلك يروق لك». قال غابرييل ببرود.

تطلّعت إليه للحظة، ثم التفتت إلى السيدة مالينس وقالت:

«هو ذا زوج لطيف سيّدة مالينس».

وبينما التفتت لتعود أدراجها عبر غرفة الاستقبال، استأنفت السيدة مالينس حديثها، دون أن تأبه لتلك المقاطعة، فراحت تصف لغابرييل الأماكن الجميلة في اسكتلندا وروعة مناظرها، مؤكّدة له أنّ صهرها كان يأخذهم كل عام إلى البحيرات لصيد السمك، وأنّه صيّاد ماهر، وأنّه أمسك ذات يوم سمكة كبيرة رائعة قام العامل في الفندق بطهوها لهم على العشاء.

لم يسمع غابرييل ممّا قالته سوى شذرات، ومع اقتراب موعد العشاء، عاد إلى التفكير في خطبته وفي الاقتباسات التي سيستخدمها، وإذ رأى فريدي مالينس قادمًا للقاء أمّه، ترك له كرسيّه وتراجع نحو كوّة النافذة. كانت غرفة الاستقبال قد بدأت تخلو من الحضور ومن بقوا فيها بدوا مُنهكين من الرقص وهم يتحدّثون بهدوء في مجموعات صغيرة، وقد تصاعدت من الغرفة الخلفيّة قعقعة الأطباق والسكاكين. ربّتت أصابع غابرييل الدّافئة والمرتجفة على زجاج النّافذة البارد، كم سيكون الجوّ مُنعشًا في الخارج! كم سيكون ممتعًا أن يخرج وحده ليتمشّى، على امتداد النهر أولًا ثم عبر المتنزه! سيكون الثلج متراكمًا على أغصان الأشجار مشكّلًا غطاءً ساطعًا

على قمة نُصْب ولينغتون[1]. كم سيكون ذلك أمتع من الجلوس حول مائدة العشاء!

ألقى نظرةً على عناوين خطبته: الضيافة الأيرلندية، الذكريات الحزينة، النِّعم الثلاث، باريس، الاقتباس من براوننغ. ثمّ كرّر في داخله جملةً كان قد كتبها في مقاله: «يشعر الإنسان بأنّ الإنسانَ[2] يستمع إلى موسيقى يعذّبها الفِكْر». لقد أشادت الآنسة إيڤورز بالمقال. هل كانت صادقةً؟ هل لها حقًّا أيّ حياة خاصّة بها وراء كل دعايتها الوطنيّة؟ لم يكن بينهما أيّ بغضاء حتى تلك الليلة، ولَكنّه شعر بالتوتّر لمجرّد أن فكّر بأنها ستكون على مائدة العشاء تتطلّع إليه بعينيها المتسائلتين المنتقدتين وهو يتحدّث. ربّما لن تشعر بالأسف لرؤيته يُخفق في إلقاء خطبته. وللحظة راودت ذهنه فكرة منحته بعض الجرأة. سوف يقول، ملمّحًا للخالة كيت والخالة جوليا: «السيدات والسادة، ربما كان للجيل الذي بدأ في الأفول الآن ما ارتكبه من أخطاء، لكنني أعتقد أن لديه خصالًا معيّنة تميّزه كالضّيافة، والحصافة، والإنسانية، وهي خصال يفتقدها على ما يبدو الجيل الجديد، الجاد جدًّا، المثقّف للغاية، ذلك الذي ينمو من حولنا». بدا له الأمر جيّدًا جدًّا، وأنّه رمية محكمة صوب الآنسة إيڤورز. وفيم سيعنيه أنّ خالتيه كانتا امرأتين أمّيتين؟

---

(1) نُصْب ويلينغتون Wellington Monument: مسلّة في حديقة فونيكس بدبلن، أقيمت تخليدًا لدوق ويلنغتون الذي يعتقد أن دبلن هي مسقط رأسه.

(2) كما تبيّن القارئ ولا شكّ فإنّ تكرار الكلمات، والعبارات أحيانًا، أسلوبٌ أثيرٌ لدى جويس في معظم أعماله.

استرعت انتباهه همهمة سَرَت في الغرفة فجأة. كان السيد براون يتقدّم من ناحية الباب مرافقًا الخالة جوليا بأدب وهي تستند على ذراعه مبتسمةً وخافضةً رأسها، ولقد رافقهما صخبٌ من التصفيق غير المنتظم إلى أن وقفا أمام البيانو. عندئذ، وما إن جلست ماري جين على الكرسيّ واستدارت الخالة جوليا -وقد انطفأت ابتسامتها- نصف استدارة ليصل صوتها كما يجب إلى داخل الغرفة حتّى بدأ التصفيق يخفّ بالتدريج. ثمّ لم يلبث غابرييل أن تبيّن المقدّمة الموسيقية، وهي من أغنية قديمة للخالة جوليا عنوانها «تزيّنْتُ لحفل الزفاف»[1]. والحقّ أنّ صوتها القويّ الصافي طغى على التردّدات المميّزة للنغم، وبالرغم من السرعة الكبيرة التي ميّزت غناءها فإنّها لم تُهمل أبسط زخرفات الأداء. إنّ متابعة الصوت، دون النظر إلى وجه المغنّية، يشعرك بنشوة كنشوة التحليق السريع والآمن في آن، ويجعلك تتشاركها مع الآخرين. وفي ختام الأغنية صفّق غابرييل بحرارة كما فعل الجميع. وبالتوازي مع ذلك تناهى إلى الأسماع تصفيق متأتّ من عند مائدة العشاء غير المرئية، تصفيق بدا أصيلًا وصادقًا حتى إنّ مسحةً من الحمرة شابت وجه الخالة جوليا وهي تنحني لتعيد إلى حامل النوتة كتاب الأغاني القديم المغلّف بجلد نُقشت عليه الأحرف الأولى من اسمها. كان فريدي مالينس قد استمع إلى الأغنية ورأسه مائل لينصت على نحو أفضل، ولقد ظلّ يُصفّق حتّى بعد أن كفّ الجميع عن ذلك، مُتحدّثًا بحماس إلى أمّه

(1). تزيّنْت لحفل الزفاف Arrayed for the Bridal: مقطوعة من أوبرا لبلليني بعنوان «البيوريتاني» (البروتستانتي المتطهّر) وقد عرضت في دبلن عام 1837.

وهي تومئ برأسها مستجيبةً له باهتمام وتأنٍّ. وفي نهاية المطاف حينما لم يعد بوسعه التّصفيق أكثر، انتصب فجأةً وهرع عبر الغرفة إلى الخالة جوليا ليتناول يدها ويُطبق عليها بيديه، هازًّا إيّاها وقد خانته الكلمات أو ربّما أنّ تهدُّج صوته فاق المُعتاد، ولكنّه رغم ذلك قال:

«كنت أخبر أمي للتو بأنّني لم أسمعك قطّ تغنّين كما غنّيت الآن. لا، بل إنّ صوتك لم يكن يومًا بمثل هذا البهاء الذي سمعته الليلة. هو ذا! هل تصدقين ذلك؟ إنّها الحقيقة. أقسم بشرفي إنّها الحقيقة. لم أسمع صوتك ولا مرّة بهذا الصفاء.. بهذا الوضوح وبهذا الصفاء، ولا مرّة».

ابتسمت الخالة جوليا ابتسامة عريضة وغمغمت شيئًا ما عن الإطراء وهي تحرّر يدها من قبضة فريدي وفي الوقت ذاته مدّ السيد براون يده المفتوحة نحوها وقال لأولئك الذين كانوا على مقربة منه بأسلوب رجل استعراضات يقدّم معجزةً فنيّة للجمهور:

«الآنسة جوليا موركان، أحدث اكتشافاتي!».

وبينما كان يضحك حتّى القهقهة لمزحته، استدار إليه فريدي مالينس وقال:

«حسنًا يا براون، إذا كنت جادًّا فبإمكانك اكتشاف من هو أسوأ. كلّ ما يمكنني قوله إنّني لم أسمعها قطّ تغنّي بنصف الرّوعة التي غنّت بها الآن في كل المرّات التي جئت فيها إلى هنا. إنّها الحقيقة دون أيّ مبالغة».

«ولا أنا أيضًا، أعتقد أن صوتها تحسّن كثيرًا».

هزّت الخالة جوليا كتفيها وقالت بنبرة فخر خجول:

«بالمقارنة مع باقي الأصوات لم يكن صوتي رديئًا منذ ثلاثين عامًا خَلَتْ».

«لطالما قلت لجوليا إنّها ببساطة مرميّة هناك في تلك الجوقة. لكنها لا تسمع نصحي البتّة». قالت الخالة كيت على نحو مُلفت، ثمّ التفتت وكأنّها تطلب رأيًا حصيفًا من الآخرين لتُواجه طفلًا عنيدًا، أمّا الخالة جوليا فلبثت تنظر أمامها، وابتسامة غامضة لذكرى بعيدة ترتسم على وجهها.

«لا» قالت الخالة كيت مواصلة تذمّرها، «لم تسمع نصح أحد أو تقبل إرشاده، كانت تكدح هناك في تلك الجوقة ليلًا ونهارًا، ليلًا ونهارًا... منذ الساعة السادسة صباحًا، وفي يوم عيد الميلاد! وكل ذلك من أجل ماذا؟».

«حسنًا، أليس ذلك إجلالًا لله، يا عمّة كيت؟». سألتها ماري جين، وهي تدور عن مقعد البيانو مبتسمةً، فما كان منها إلاّ أن التفتت إليها وقالت بغضب:

«أنا أعرف كل شيء عن إجلال الله، يا ماري جين، لكنّني أعتقد أنه ليس من الإجلال البتّة أن يقوم البابا بإخراج النساء من الجوقات التي كدحن فيها طيلة حياتهنّ، وأن يضع حفنة صغيرة من الفتيان المبتدئين فوق رؤوسهن. وحتّى لو افترضت

أنّ البابا فعل ذلك لصالح الكنيسة فإنّ فعله يظلّ غير سليم يا ماري جين، وغير عادل».

كان الانفعال قد بلغ منها مبلغًا، وبدا أنّها ستستمرّ في الدفاع عن أختها، لا سيّما أن ذلك الموضوع يحزّ في نفسها، لولا أنّ ماري جين وقد انتبهت إلى عودة جميع الراقصين، تدخّلت بهدوء قائلة:

«حسنًا، يا عمّة كيت، أنت تسبّبين فضيحة للسيد براون، باعتباره ينتمي إلى الطائفة الأخرى».

وإذ استدارت الخالة كيت إلى السيد براون وألفته يبتسم بشفتين منفرجتين عقِب الإشارة إلى دينه، قالت على عجل:

«أوه، لست أعترض على صلاحيّات البابا. أنا مجرّد عجوز حمقاء، وليس لي أن أتجرّأ على فعل شيءٍ كهذا. ولكن ثمّة آداب مُتعارف عليها في حياتنا اليوميّة ومنها العرفان. ولو كنت مكان جوليا لقلت ذلك للأب هيلي في وجهه مباشرةً...».

«وبعيدًا عن ذلك يا عمّة كيت نحن جائعون حقًّا، وعندما نشعر بالجوع، فإنّنا جميعًا نصبح مشاكسين». أوضحت ماري جين.

«وعندما نشعر بالعطش أيضًا». عقّب السيد براون.

«إذن من الأفضل لنا الذهاب إلى تناول العشاء وسنكمل النقاش لاحقًا». قالت ماري جين بحسم.

عند بسطة الدَّرج المتاخم لغرفة الاستقبال وجد غابرييل زوجته وماري جين تحاولان إقناع الآنسة إيڤورز بالبقاء لتناول العشاء.

ولكنّها وقد اعتمرت قبّعتها وزرّرت معطفها ما كانت لتبقى، لا لعدم شعورها بالجوع فحسب، وإنّما أيضًا لتجاوزها الوقت الذي خصّصته لزيارتهم.

كانت السيدة كونروي تقول: «لمدّة عشر دقائق فقط يا مولي، إنّ هذا لن يؤخّرك». وماري جين تؤيّدها قائلة: «تناولي القليل فقط لن يُضيرك ذلك لا سيّما بعد كل الرقص الذي رقصته».

ولكنّ الآنسة إيڤورز أجابت بإصرار: «حقًّا لا يمكنني ذلك»

«أخشى أنك لم تستمتعي على الإطلاق». قالت لها ماري جين بنبرة يائسة.

«بالعكس لقد استمتعت كثيرًا»، أكّدت الآنسة إيڤورز ثمّ أضافت: «ومع ذلك لا بدّ أن أغادر».

«ولكن كيف ستتمكّنين من العودة إلى المنزل؟»، سألت السيدة كونروي.

«أوه، إنّهما خطوتان لا أكثر أقطعهما باتّجاه الرصيف».

تردّد غابرييل للحظة ثمّ قال:

«هل لي، يا آنسة إيڤورز، أن أرافقك إلى البيت إن كنت حقًّا مضطرةً للذهاب؟».

فما كان منها إلاّ أن انسحبت ووهي تهتف:

«لا أريد سماع شيء من هذا، بحقّ السماء اذهبوا إلى عشائكم

ولا تأبهوا بي. أستطيع الاعتناء بنفسي جيّدًا».

«حسنًا، إنّك فعلا فتاة مضحكة، يا مولي». قالت السّيدة كونروي بصراحة.

« شكرًا لكم[1]»، هتفت بهم وهي تضحك، ثمّ سارعت بنزول الدّرج.

شيّعتها ماري جين ببصرها وقد بدا على وجهها تعبير امتزجت فيه الحيرة بالأسف، وفي الآن ذاته انحنت السيدة كونروي فوق سياج الدرج علّها تسمع صوت إغلاق الباب الخارجي. أمّا غابرييل فوجد نفسه يتساءل عمّا إذا كان هو سبب رحيلها المفاجئ، وإذ تذكّر أنّها لم تُبد أيّ امتعاض بل غادرت وهي تضحك، لبث ينظر إلى أسفل الدرج مشدوهًا.

في تلك اللحظة، قدمت الخالة كيت مُتهادية من غرفة العشاء، وهي تفرك يديها شبه يائسة. ولم تلبث أن صاحت مُتسائلة: «أين غابرييل؟ أين تُراه يكون غابرييل؟ الجميع هناك بانتظاره، ولا يوجد أحد لتقطيع الإوزة!».

وفي الحال أتاها صوت غابرييل على نحو مفاجئ: «هأنذا، يا خالة كيت! وعلى استعداد لتقطيع سرب من الإوزّ، إذا لزم الأمر».

وُضِعت إوزّة بُنّية سمينة على واحد من طرفي المائدة، أمّا على الطرف الآخر، فوق فراش من الورق المجعّد المزيّن بأغصان

(1) وردت العبارة في الأصل بالأيرلندية: Beannacht libh.

البقدونس، فوُضع خنزير كبير مجرّد من جلده الخارجي وقد نُثِر فوقه فتات الخبز، واستقرّت إلى جانبه شرائح من لحم البقر المتبّل. وبين هذين الطرفين المتقابلين انتظمت صفوف متوازية من الأطباق الجانبية: كومتان صغيرتان من الهلام الأحمر والأصفر، وطبق مجوّف مملوء بكتل من المهلبيّة والمربّى الأحمر، وطبق على شكل ورقة خضراء عريضة بمقبض كساق النبات، شَغَلَتْه أجمة من الزبيب القرمزي واللوز المقشّر، بالإضافة إلى طبق مُماثل وُضِع عليه مستطيل من حبّات تين سميرنا المُتراصّة، وطبق من القشدة يعلوه جوز الطيب المبشور، ووعاء صغير مملوء بالشكولاتة والحلويّات الملفوفة بورق ذهبيّ وفضّي، وإناء زجاجي انتصبت فيه بعض سيقان الكرفس الطويلة. وفي منتصف المائدة كان ثمّة وعاءان قديما الطراز من الزجاج المشذّب قائمان كحارسيْن لحامل الفاكهة الذي تكوّم فيه هرم من البرتقال والتفاح الأمريكي، وقد احتوى أحدهما على نبيذ البورت والآخر على شراب الشيري القاتم. أمّا على غطاء البيانو المربّع المغلق فقد ظهرت كعكة البودينغ في طبق ضخم أصفر اللون، وخلفها ثلاث مجموعات من قناني جعة الستوت القويّة، وجعة الآيل المرّة، والمياه المعدنية، مرتّبة حسب ألوان أغلفتها. المجموعتان الأولى والثانية بأغلفة سوداء، مع خطوط حمراء وبنيّة، والمجموعة الثالثة وهي أصغر المجموعات مكسوّة بالبياض مع أحزمة خضراء عريضة.

اتّخذ غابرييل مقعده بجرأة على رأس المائدة، وبعد أن تفحّص حدّ سكين التقطيع، غرز شوكته بثبات في الإوزّة. كان يشعر

بالارتياح في لحظته تلك، فهو خبير في التقطيع ولا شيء يروقه مثلما يروقه وجوده على رأس مائدة عامرةٍ، وسرعان ما بدأ يسأل:

«آنسة فيرلونغ، ماذا أعطيك؟ جناحًا أم شريحةً من الصّدر؟».

«شريحة صغيرة من الصدر فقط».

«آنسة هيغنز، ماذا عنك؟».

«أوه، أيّ شيء تختاره سيد كونروي».

وبينما كان غابرييل والآنسة دالي يُوزّعان أطباق لحم الإوزّة وأطباق لحم الخنزير ولحم البقر المتبّل، تنقّلت ليلي من ضيف إلى ضيف وبين يديها طبق من البطاطا المطحونة الساخنة ملفوف في منديل أبيض. إنّ ماري جين هي من اقترح ذلك، وهي أيضًا من اقترح وضع صلصة التفاح على الإوزّة، لكنّ الخالة كيت قالت إنّ لحم الإوزّة المشويّ بطريقة عاديّة دون أي صلصة تفّاح لطالما كان جيّدًا بما يكفي، آملة ألا تأكل أبدًا ما هو أقلّ لذّة من ذلك. وبعد أن تأكّدت ماري جين من حصول تلاميذها على أفضل الشرائح راحت الخالة كيت والخالة جوليا تقدّمان زجاجات جعة الستوت والآيل التي كانت موضوعة على البيانو للسادة وزجاجات المياه المعدنية للسيّدات وقد عمّ المكان جوّ من الفوضى والضحك والصّخب، صخب الطلبات والطلبات المقابلة، من السكاكين والشوك إلى الفلين وسدّادات الزجاج. ثمّ بدأ غابرييل تقطيع الجزء الثاني من حصص اللحم بعد أن أنهى الجولة الأولى دون أن يُقدّم

شيئًا لنفسه. وإذ أبدى الجميع احتجاجهم بصوت عالٍ، عمد إلى إرضائهم بعبّ جرعة طويلة من جعة الستوت، لا سيّما أنه وجد التقطيع عملًا مجهدًا. وحين جلست ماري جين بهدوء لتتناول عشاءها، كانت الخالة كيت والخالة جوليا لا تزالان تتهاديان حول المائدة، وتمشيان الواحدة في أعقاب الأخرى، وتعترض إحداهما سبيل نظيرتها، وتتبادلان الأوامر لتلبية الطلبات، حتّى إنّ السيد براون وغابرييل توسّلا إليهما لكي تجلسا وتتناولا العشاء، لكنّهما ردتّا قائلتين إنّ لديهما متّسعًا من الوقت، وهو ما دفع فريدي مالينس في نهاية المطاف إلى القيام والإمساك بالخالة كيت وإجلاسها بحزم على كرسيّها وسط ضحك الجميع.

وبعد أن قام غابرييل بخدمة الجميع قال مبتسمًا:

«والآن، إذا كان ثمّة من يريد بعدُ قليلًا ممّا يسمّيه العامّة حشوًا فليتكلّم أو فلتتكلّم».

دعته جوقة من الأصوات إلى أن يبدأ عشاءه، وجاءته ليلي بثلاث حبّات من البطاطا كانت قد استبقتها له.

«حسنًا»، قال موافقًا وهو يعبّ جرعةً تمهيديّة أخرى «أرجو أن تنسوا وجودي، سيّداتي سادتي، لبضع دقائق».

جلس ليتعشّى دون أن يشاركهم الحديث الدائر على المائدة، بينما راحت ليلي ترفع الأطباق، وموضوعه فرقة الأوبرا التي كانت آنذاك بصدد تقديم عرض في المسرح الملكيّ. امتدح السيد بارتل دارسي

-وهو الصدّاح الشاب ذو البشرة السمراء والشارب الأنيق- المغنّيةَ ذات الصوت الخفيض في الفرقة بكثير من التوقير، لكن الآنسة فيرلونغ قالت إنّ أسلوبها عاميّ. ثمّ تكلّم فريدي مالينس قائلًا إنّه شهد زعيمًا زنجيًّا يغنّي في الجزء الثاني من عرض غيتي الإيمائي[1] وإنّه كان أحد أفضل أصوات الرجال الأوبرالية التي سمعها على الإطلاق. ولم يلبث أن سأل السيدَ بارتل دارسي عبر المائدة:

«هل سمعته؟»

«كلاّ»، أجاب السيدُ بارتل دارسي بلا مبالاة، وما كان من فريدي مالينس إلاّ أن استطرد مُوضّحًا:

«إنّما سألتك لأنّني متشوّق لسماع رأيك فيه، أعتقد أنه ذو صوت فخم».

«ليس ثمّة أفضل من تيدي للاكتشافات الجيّدة». علّق السيد براون بنبرة وديعة متوجّها إلى كلّ من على المائدة.

«ولماذا لا يكون ذا صوت جميل؟»، تساءل فريدي مالينس بحدّة، «ألأنّه مجرّد أسود؟».

لم يحر أحد جوابًا حتّى عادت ماري جين بالجالسين إلى الحديث عن الأوبرا الرسميّة قائلةً إنّ أحد تلاميذها أدّى أمامها عرضًا لمينون[2]. وإنّه طبعًا كان جيّدًا جدًّا لكنّه جعلها تفكّر في المسكينة

(1) كان مسرح غيتي Gaiety يقع في شارع ساوث كينغ، وقد تم افتتاحه سنة 1871.
(2) مينون Mignon: مغنية أوبرا إنجليزية (1886-1971).

جورجينا بيرنز[1]. ثم انتقل السيد براون بالحديث إلى أبعد من ذلك، إلى الفرق الإيطالية القديمة التي اعتادت القدوم إلى دبلن: تييتجينس[2]، إيلما دي مورزكا[3]، كامباننيني[4]، تريبلي العظيمة[5]، جيوغليني[6]، رافيللي[7]، أرامبورو[8]. «آه على تلك الأيام» قال مؤكّدًا، قبل أن يُضيف: «حين كان في دبلن ما هو جدير بأن يُسمّى غناءً».

حدّثهم أيضًا عمّا كان من اكتظاظ القاعة العليا للمسرح الملكي القديم ليلة تلو أخرى، وعن مغنّ أوبراليّ إيطاليّ قام ذات ليلة بأداء «دعوني أسقط مثل جندي» لخمس مرّات متتالية، صاعدًا حتّى درجة «سي» العالية في كل مرة، وعن فتيان المكان الّذين كانوا في بعض الأحيان، ومن فرط حماسهم، يفكّون وثاق الخيول المربوطة إلى مركبة مغنّية أوبرا عظيمة ليجرّوها بأنفسهم عبر الشوارع حتّى الفندق الذي تقيم فيه. «لماذا ما عادوا يؤدّون كبريات الأوبرا القديمة الآن، مثل دينورا[9]، ولوكريشيا بورجيا[10]؟» تساءل السيد براون،

---

(1) جورجينا بيرنز Georgina Burns: مغنية أوبرا (1860-1932).

(2) تييتجينس Tietjens: مغنية أوبرا ألمانية الأصل (1831-1877).

(3) إيلما دي مورزكا Ilma de Murzka: مغنية أوبرا من كرواتيا (1834-1889).

(4) كامباننيني Campanini: مغني أوبرا من إيطاليا (1845-1896).

(5) تريبلي Trebelli: مغنية أوبرا فرنسية (1836-1892).

(6) جيوغليني Giuglini: مغني أوبرا إيطالي (1825-1865).

(7) رافيللي Ravelli: مغني أوبرا إيطالي (1776-1858).

(8) أرامبورو Aramburo: مغني أوبرا إسباني (1840-1912).

(9) دينورا Dinorah: أوبرا فرنسية لجياكومو مايربير Giacomo Meyerbeer قُدّمت عام 1859.

(10) لوكريشيا بورجيا Lucrezia Borgia: أوبرا مليودرامية إيطالية لجايتانو دونيزيتي Gaetano Donizetti قُدّمت عام 1833.

ثم لم يلبث أن أجاب بحسم: «لأنّه لم يعد هناك أصوات قادرة على تأديتها. هذا هو السبب».

«حسنًا، حسب رأيي ثمّة اليوم مغنّون رائعون تمامًا كما في السابق». قال السيد بارتل دارسي بثقة. ما دفع السيّد براون إلى سؤاله في تحدّ:

«أين هم؟»

«في لندن، وفي باريس، وفي ميلانو». ردّ السيد بارتل دارسي بحماس ثمّ تابع: «أعتقد أن كاروسو[1]، على سبيل المثال، رائع جدًا، هذا إن لم يكن أفضل من أيّ واحد من الرجال الذين أشرت إليهم».

«ربما»، قال السيد براون، قبل أن يُضيف في غير اقتناع «لكن اسمح لي أن أقول إنّي أشكّ في ذلك بشدة».

«أوه، بوسعي أن أمنح أيَّ شيء لسماع كاروسو وهو يغنّي». علّقت ماري جين.

«حسب رأيي، لم يكن هناك سوى مغنّ أوبراليّ واحد فقط، أعني أنّ واحدًا فقط كان يرضيني، لكنّني أفترض أنّ أيًّا منكم لم يسمع به». قالت الخالة كيت وهي تلتقط عظمًا.

«مَن هو يا آنسة موركان؟»، سأل السّيد بارتل دارسي بأدب.

«اسمه پاركنسون، لقد سمعته وهو في أوج مجده، وأعتقد أنّه

---

(1) إنريكو كاروسو Caruso: مغني أوبرا إيطالي (1873-1921).

كان آنذاك صاحب أنقى صوت أوبرالي يمكن أن يصدر من حنجرة رجل».

«غريب، فأنا حتّى لم أسمع باسمه قطّ». صرّح السيد بارتل دارسي.

«نعم، نعم، الآنسة موركان مُحقّة، أتذكّر أنّي سمعت حديثًا عن العجوز باركنسون، لكنّه كان قبلي بزمن بعيد جدًّا». قال السيّد براون مؤكّدًا.

«كان صوتًا انجليزيًا أوبراليًا جميلًا، فيه صفاء، وعذوبة، وشجى»، قالت الخالة كيت متحمّسةً.

ما إن انتهى غابرييل من تناول عشائه، حتّى نُقلت كعكة البودنغ الضخمة إلى المائدة، واستُؤنفت قعقعة الشوك والملاعق من جديد، وقد راحت زوجة غابرييل تضع ملء ملعقة من الحلويّات في كل طبق وتوزّعها على امتداد الطاولة، فتتلقّفها ماري جين في منتصف الطريق وتضيف إليها هلام التوت أو البرتقال أو المهلّبية والمربّى. كانت كعكة البودنغ من صنع الخالة جوليا، ولقد نالت استحسان الجميع، إلاّ أنّ صانعتها اعتبرت سمارها غير مثاليّ.

«حسنًا، أتمنّى يا آنسة موركان أن يبلغ سماري الحدّ الذي يُرضيك، فأنا كما تعلمين، أسمر بأتمّ معنى الكلمة[1]». علّق السيد براون مازحًا.

---

(1) يقصد معنى اسمه Brown أي أسفع أو أسمر.

أكل جميع السادة بعض الحلويّات مجاملةً للخالة جوليا عدا غابرييل الذي لم يكن يأكل الحلويّات البتّة، فتركوا له الكرفس. ولقد حذا فريدي مالينس حذوه فأخذ ساق كرفس وأكلها مع قطعة البودنغ، لِما سمعه عن فوائد الكرفس للدم وهو الذي كان آنذاك تحت رعاية أحد الأطبّاء. وإذ قالت والدته السيدة مالينس -بعد أن ظلّت صامتة طوال العشاء- إنّ ابنها سيذهب إلى جبل ميلراي[1] في غضون أسبوع أو نحو ذلك، طفق الحضور يتحدّثون عن جبل ميلراي، وهوائه المنعش، ورهبانه المضيافين الذين لا يطلبون بنسًا واحدًا من ضيوفهم.

«هل تُريدون إقناعي بأنّ المرء بمقدوره أن ينزل هناك ويُستضاف وكأنّه في فندق، وأن يقتات على خيرات الأرض، ثم يغادر دون أن يدفع شيئًا؟». سأل السيد براون بارتياب.

«أوه، إن معظم الناس يُقدّمون بعض التبرّعات للدير عندما يغادرون». قالت ماري جين.

«أتمنّى لو أنّ لدينا مؤسّسة كهذه في كنيستنا»، عقّب السيد براون بصدق.

وكم كانت دهشته عظيمة حين سمع أنّ الرهبان لا يتحدّثون مُطلقًا، وأنّهم ينهضون في الثانية صباحًا، وينامون في توابيتهم! حتّى إنّه تساءل عن علّة ذلك.

---

(1) دير جبل ميلراي Melleray: في سفح جبال نوكميلداون Knockmealdown جنوب أيرلندا، أسّس سنة 1833.

«تلك هي ضوابط طريقتهم في الرهبنة»، قالت الخالة كيت بحزم.

«نعم، ولكن لماذا؟». سأل السيد براون بإلحاح.

كرّرت الخالة كيت قولها إنّ تلك هي طريقتهم لا أكثر ولا أقلّ، وإذ بدا على السيد براون أنّه لم يفهم، أوضح له فريدي مالينس، قدر استطاعته، أنّ الرهبان كانوا يحاولون التعويض عن الخطايا التي ارتكبها جميع الخطأة في العالم. ولم يكن التفسير واضحًا تمامًا، إذ أنّ السيد براون ابتسم بشفتين منفرجتين، وقال:

«أُحبّ هذه الفكرة كثيرًا، ولكن أليس للسرير الهزّاز المريح أن يفي بالغرض كالتابوت؟».

« إنّما التابوت لتذكيرهم بمثواهم الأخير». أوضحت ماري جين.

وما إن اتّخذ الحديث تلك المسحة الكئيبة حتّى غرق المكان في الصمت، وأثناء ذلك تسنّى للجميع سماع السيدة مالينس تقول لجارتها بنبرة خافتة غير واضحة:

«إنّهم رجال صالحون جدًّا هؤلاء الرهبان، رجالٌ أتقياء بالفعل».

عُرِض الزبيب واللوز والتين والتفاح والبرتقال والشوكولاتة والحلويّات على من حول الطاولة، ودعت الخالة جوليا جميع الضيوف إلى تناول نبيذ البورت أو شراب الشيري. ولئن أعرض

السيد بارتل دارسي أوّل الأمر عن تناول أيّ منهما، فإنّ أحد المجاورين له لكزه بكوعه وهمس له بشيءٍ ممّا جعله يسمح له بملء كأسه. ثمّ بدأ الحديث يخفّ بالتدريج، ومع ملء آخر الكؤوس كان قد توقّفَ تمامًا، ليخيّم على الجوّ صمت لم يكسره سوى صوت انهمار النبيذ واحتكاك الكراسي. نظرت الآنسات موركان الثلاث إلى مفرش المائدة، وسعل أحد الأشخاص مرّة أو مرّتين، ثم نقر عدد من الرجال على المائدة بلطف تماهيًا مع الصمت. وفي خضمّ الصمت دفع غابرييل كرسيّه للخلف ووقف.

تصاعد صوت النقر على المائدة في آن واحد على سبيل التشجيع، ثم توقّف تمامًا. وأمال غابرييل أصابعه العشرة المرتجفة على مفرش المائدة وهو يبتسم لرفاقه متوتّرًا. وإذ قابله صفّ من الوجوه المضطربة رفع عينيه إلى ثريّا الشموع. بَلَغتْهُ نغمة الفالس الصادرة عن البيانو مشوبة بحفيف التنانير عند باب غرفة الاستقبال. لعلّ الناس في الخارج واقفون على الرصيف تحت الثلج، يُحدّقون في النوافذ المضيئة ويُصغون لموسيقى الفالس. الهواء هناك في غاية النقاء. وعلى بعد مسافة لا بأس بها تقع الحديقة بأشجارها المثقلة بالثلج، والنصب التذكاري لويلنغتون الذي اعتمر قلنسوةً لامعة من الثلج، ذاك المتوهّج ناحية الغرب فوق حقل أبيض من خمسة عشر فدّانًا[1]. أمّا في الداخل فقد شرع غابرييل يقول:

«سيداتي سادتي، لقد دار في خلدي هذا المساء، كما في السّنوات

(1) حقل الخمسة عشر فدّانًا هو الحقل الذي يقع جنوب حديقة الفونيكس.

الماضية، أن أقوم بواجب مبهج للغاية، ولكنّي أخشى أن يكون أكبر من قدراتي البلاغيّة».

«لا، لا!»، قال السيد براون.

«لكن، ومهما يكن من أمر، لست أملك إلاّ أن ألتمس منكم الاكتفاء بالنيّة والعزم، وأن تعيروني انتباهكم لبضع لحظات سأحاول خلالها أن أُعبّر لكم قدر المُستطاع عن مشاعري في هذه المناسبة».

«سيداتي، سادتي، ليست هذه هي المرّة الأولى التي نجتمع فيها تحت هذا السقف المضياف، وحول هذه المائدة المضيافة. وليست المرّة الأولى التي نكون فيها ضيوفًا، أو ربّما من الأجدر أن أقول، ضحايا لكرم الضيافة الصادر عن ثلّة من السيّدات الطيّبات الموجودات هنا».

رسم بيده دائرة في الهواء واستغرق في الضحك، فضحك الجميع أو على الأقلّ ابتسموا للخالة كيت والخالة جوليا وماري جين اللواتي اصطبغن بحمرة الخجل وقد لاحت عليهن أمارات السّعادة. ثمّ استأنف غابرييل حديثه بمزيد من الجرأة:

« في كل عام جديد يتفاقم شعوري بأنّ بلدنا ليس له من عُرف جدير بأن يُكلّله بالشرف مثل عُرف حسن الضيافة، وهو ما يستدعي المُحافظة عليه بحرص شديد. إنه عُرف خاصّ بنا دون سائر الأمم الحديثة على ما يبدو لي من مُحصّلة تجاربي

(ولقد زرت عددًا لا بأس به من بلدان العالم). قد يقول قائل إنّه نقيصة ليس لنا أن نتباهى بها. ولكن حتّى إن سلّمنا بذلك، فإنّها حسب رأيي نقيصة رائعة، وكلّي أمل أن تبقى راسخةً في ثقافتنا لزمن طويل. وأنا متأكّد من أمر واحد على الأقلّ: طالما أن هذا السقف يأوي السيدات الطيبات المنوّه بهن- وأتمنّى من أعماق قلبي أن يستمرّ ذلك للعديد والعديد من السنوات القادمة- فإنّ عُرف الضيافة الأيرلنديّة الكريمة الصادقة الذي ورثناه عن أجدادنا ومن واجبنا أن نُورّثه لأحفادنا، سيظلّ حيًّا بيننا».

سرت بين الجالسين حول المائدة همهمة مُتحمّسة تعبيرًا عن الموافقة، وإذ خطر لغابرييل أن الآنسة إيڤورز غير موجودة وأنّ طريقتها في المغادرة لم تكن لائقةً، قال بثقة في نفسه:

«سيّداتي سادتي، إنّ جيلًا جديدًا يكبُر بيننا، وهو جيل تُحفّزه أفكار جديدة، ومبادئ جديدة. وإنّه لَجادّ ومتحمّس في تعاطيه مع هذه الأفكار الجديدة، وحتّى إذا ضلَّتْ حماستُه طريقَها فإنّها على ما أعتقد، صادقة تمامًا. لكنّنا نعيش في عصر من الشكّ، أو لأقلْ من عذاب الفكر، إذا صحّ التعبير؛ أحيانًا أخشى أنّ هذا الجيل الجديد، المتعلّم، بل الفائق التعلّم، سوف يفتقر إلى تلك الخصال من الإنسانية، والضيافة، والدّماثة المميّزة لزمن مضى. وأثناء استماعي هذه الليلة إلى أسماء كل أولئك المغنّين العظماء المُنتمين إلى الماضي بدا لي، ويجب أن أعترف بذلك، أنّنا نعيش في

عصر أقل رحابةً. وأنّ تلك الأيّام الماضية تستأهل، دون مبالغة، أن يُطلَق عليها: الأيّام الرّحبة؛ وإذا ما ذهبت دون أيّ أملٍ في استعادتها، فلْنتمنّى على الأقلّ، أن نواصل في لقاءات مثل هذا اللقاء الحديث عنها بفخر وعاطفة، وأن نُحيي باستمرار ذكرى هؤلاء العظماء الراحلين الذين لن يسمح العالم بأفول ذكراهم».

«اسمعوا، اسمعوا!»، قال السيد براون بصوت عالٍ. ثمّ استطرد غابرييل بنبرة أكثر ليونة:

«ولكن دومًا ما تتبادر إلى أذهاننا خواطر محزنة في مثل هذه اللقاءات: أفكار عن الماضي، وعن الشباب، وعن التغيّرات، وعن الوجوه الغائبة التي نفتقد حضورها بيننا الليلة. إنّ طريقنا في الحياة مزروعة بالكثير من الذكريات الحزينة؛ فإذا ما تأمّلناها طويلًا وباطّراد، لن نجد الإرادة اللازمة لنواصل بشجاعة عملنا بين الأحياء، والحال أنّنا جميعًا لدينا في هذه الحياة واجبات وعواطف جديرة، وجديرة بحقّ، بأن نبذل من أجلها قصارى جهدنا.

لذلك، لن أُسهب في الحديث عن الماضي، ولن أدع أيّ موعظة حزينة تُلقي بظلالها علينا في هذه الليلة. لقد التقينا هنا لفترة قصيرة بمنأى عن روتين حياتنا اليوميّة المتّسمة بالازدحام والاندفاع. إنّنا نلتقي هنا بروح الصحبة الطيّبة كأصدقاء، وإلى حدّ مّا، بروح الرفقة الحقيقيّة، كزملاء، وكضيوف على... ما

عساي أُسَمّيهن؟ حسنًا فلأقُلْ على النِّعم الثلاث[1] لعالم دبلن الموسيقي».

ضجّت المائدة بالتصفيق والضحك لذاك التلميح. وعبثًا سألت الخالة جوليا مجاوريها واحدًا تلو الآخر عمّا قاله غابرييل.

«يقول عنّا إنّنا نُمثّل النِّعم الثلاث، يا عمّة جوليا» أجابتها ماري جين.

لم تفهم الخالة جوليا ما قيل، لكنّها رفعت نظرها مبتسمةً لغابرييل وهو يتابع في السياق نفسه:

«سيّداتي، سادتي، لن أجازف في هذه الليلة بأداء الدورَ الذي لعبه باريس[2] في ظرفيّة أخرى. نعم، لن أجازف بمحاولة اختيار واحدة منهنّ، إذ أنّ المُهمّة ستكون عسيرة وأكبر من قدراتي المتواضعة، فأنا عندما أتطلّع إليهن تباعًا، بدءًا بمضيفتنا الأولى نفسها التي غدت طيبتها، بل قُل إفراطها في الطيبة، مثلًا يُحتذى من كلّ من يعرفها، مرورًا بأختها التي تبدو كأنّها وُهِبت شبابًا دائمًا، وكان غناؤها الليلة كشفًا مُفاجئًا لنا جميعًا، وصولًا إلى الأخيرة -وهي ليست الأقلّ شأنًا- أصغر مضيفاتنا، الموهوبة، المرحة، المجتهدة، والأفضل بين بنات الإخوة، عندما

---

(1) تمثال النِّعم الثلاث The Three Graces: أو الحسناوات الثلاث، وهن بنات زيوس (إفروسين، أغاليا، ثاليا) اللواتي يمثّلن الشباب والكياسة والأناقة. وسوف يقارن غابرييل لاحقًا بينهن وبين خالتيه جوليا وكيت وابنة أخيهما ماري جين.

(2) باريس Paris: في الميثولوجيا اليونانية هو الراعي الذي فاضل بين جمال هيرا وأفروديت وأثينا فاختار أفروديت وأغضب الربّتين الأخريين.

أتطلّع إليهنّ، أصدقكم القول سيّداتي وسادتي، لا أدري لمن فيهنّ أقدّم الجائزة».

ألقى غابرييل نظرة على خالتيه، وإذ رأى ابتسامة كبيرة على وجه الخالة جوليا والدموع التي ترقرقت بها عينا الخالة كيت، سارع إلى الاختتام، فرفع كأس نبيذ البورت بكل أناقة، وبالتوازي مع لمس كل واحد ممّن حول المائدة كأسه تأهّبًا، قال بصوت عال:

«دعونا نرفع نخب الثلاثة معًا، ونتمنّى لهنّ الرخاء والسعادة وطول العمر وأن يُحافظن لفترة طويلة على المكانة المشرّفة التي بلغنها بأنفسهنّ في مهنتهن، وهي لا تختلف في شيء عن المكانة الرفيعة المُكلّلة بالودّ التي يحتللنها في قلوبنا».

وقف جميع الضيوف وفي يد كلّ منهم كأس، ثمّ التفتوا نحو السّيدات الثلاث الجالسات، وراحوا يُغنّون بانسجام، تحت قيادة السيد براون:

لأنهنّ رفيقات مرحات ظريفات،[1]

لأنهن رفيقات مرحات ظريفات،

لأنهن رفيقات مرحات ظريفات،

استخدمت الخالة كيت منديلها مرارًا، وبدا على الخالة جوليا التأثّر، وانبرى فريدي مالينس يضبط الإيقاع بشوكته أمّا المغنّون فقد

(1) . تحوير بسيط للأغنية الشعبية المعروفة: For He's a Jolly Good Fellow، التي يعود لحنها إلى فرنسا القرن الثامن عشر، وتوجد لها نسخ عديدة في بريطانيا وهولندا وإيطاليا وبولندا ... إلخ.

قابل بعضهم بعضًا، وكأنّهم في حلقة طربيّة، وهم يصدحون بنبرة قوية:

دون كذب،

دون كذب،

ثم التفتوا مرةً أخرى نحو مُضيفاتهم، وكرّروا:

لأنهن رفيقات مرحات ظريفات،

لأنهن رفيقات مرحات ظريفات،

لأنهن رفيقات مرحات ظريفات،

انتقل التهليل الذي تلا ذلك إلى أبعد من غرفة العشاء بواسطة العديد من الضيوف الآخرين، وتكرّر مرةً تلو أخرى، وكان فريدي مالينس يتصرّف كقائد فرقة وشوكته ما تزال في يده.

***

هبّ نسيم الصباح النفّاذ على المدخل الذي كانوا يقفون فيه، فقالت الخالة كيت:

«فليغلق أحدكم هذا الباب. وإلاّ فإنّ السيدة مالينس سوف تموت من البرد».

«السيّد بروان في الخارج، يا عمّة كيت». أوضحت ماري جين.

«براون في كلّ مكان»، قالت الخالة كيت، خافضةً صوتها.

ضحكت ماري جين لنبرتها تلك وقالت بمكر:

«حقًّا، إنّه يقظ جدًا».

«إنّه يمرق إلى كلّ الأماكن مثل الغاز»، قالت الخالة كيت بالنبرة ذاتها ثمّ أضافت، «طالما أنّنا في عيد الميلاد».

وهذه المرة ضحكت هي نفسها للدعابة، لكنّها سرعان ما استدركت قائلة:

«لكن أخبريه أن يأتي، يا ماري جين، وأن يغلق الباب. أرجو الله ألا يكون قد سمعني».

كان باب غرفة الاستقبال في تلك اللحظة ما يزال مفتوحًا، ما أتاح للسيد براون أن يعبر عتبته ضاحكًا من جنبيه، وقد ارتدى معطفًا أخضر طويلًا غُلّفت ياقته ومعصماه بفروٍ أستراخانيّ مُقلَّد، واعتمر قبّعة بيضويّة من الفراء. وبالتوازي مع قهقهته أشار إلى رصيف الميناء المغطّى بالثلج، -وهو الذي كان يصلهم منه صفير حادّ ومتّصل- قائلًا:

«يبدو أنّ تيدي سوف يستوقف جميع عربات دبلن».

أثناء ذلك، تقدّم غابرييل من مقصورة المؤن الصغيرة خلف المكتب، وهو يغالب معطفه، وبعد أن مسح البهو بنظراته سأل:

«ألم تهبط غريتا بعد؟».

«إنها بصدد ارتداء ثيابها»، أجابته الخالة كيت.

«من الذي يعزف هناك إذن؟»

«لا أحد، لقد ذهبوا جميعًا».

«أوه، لا يا خالة كيت، بارتل دارسي والآنسة أوكالاهان لم يذهبا بعد» قالت ماري جين مصحّحة.

« على أية حال ثمّة شخصٌ ما يعبث بالبيانو» أكّد غابرييل.

وإذ تأمّلت ماري جين غابرييل والسيد براون قالت وهي ترتجف:

«إنّ النظر إليكما وأنتما متدثّران هكذا أيها السيدان يجعلني أشعر بالبرودة، ولن أشتهي أبدًا خوض رحلة العودة مثلكما في هذه الساعة». فردّ عليها السيد براون بنشاط قائلًا:

«وأنا لا أشتهي شيئًا في هذه اللحظة، بقدر ما أشتهي التنزّه سيرًا على الأقدام في الريف أو قيادة عربة رشيقة بسرعة فائقة».

«كان لدينا في ما مضى حصان صغير رائع وعربة بعجلتين»، قالت الخالة جوليا بحزن.

«جوني الذي لا يُمكن نسيانه»، عقّبت ماري جين وهي تضحك، وبينما ضحكت الخالة كيت وغابرييل لضحكها بادر السيد براون إلى السؤال مُستفهمًا:

«لماذا؟ ما هو الأمر المُميّز في جوني هذا؟»

«لقد كان جدّنا المأسوف عليه باتريك موركان، وهو الذي

عُرف في سنواته الأخيرة بوصفه نبيلًا هرمًا، صانع غراء و..» بينما كان غابرييل يهمّ بمواصلة حديثه قاطعته الخالة كيت مُصحّحة:

«أوه، كلاّ يا غابرييل، لقد كان يملك طاحونة نشاء».

«حسنًا، غراء أو نشاء، المُهمّ أنّ السيد المُسنّ كان يملك حصانًا اسمه جوني، وأنّ جوني هذا كان يعمل في طاحونة السيد المُسنّ، فلا ينفكّ يدور ويدور لتحريك الطاحونة. كلّ ذلك جيّد جدًا؛ لكن إليكم الجزء المأساويّ في حكاية جوني: ذات يوم جميل خطر للسيّد العجوز أن يخرج على متن جواده للقيام بجولة تفقّدية في الحديقة».

«فليرحم الرب روحه»، علّقت الخالة كيت، مترحّمةً.

«آمين» قال غابرييل وتابع: «ومن ثمّة أسرج الشيخ النبيل جوني وبعد أن اعتمر أفضل قبّعة طويلة لديه، وارتدى أفضل ياقة من نوعها، امتطاه وخرج في أبّهة من قصر أجداده الكائن بالقرب من باك لين، على ما أعتقد».

ضحك الجميع، ومنهم السيّدة مالينس، من طريقة غابرييل في السرد، ثمّ عاودت الخالة كيت تصحيح الرواية:

«أوه، يا غابرييل، لم يكن يعيش في باك لين، بل إنّ طاحونته فقط كانت هناك».

وكالعادة، واصل غابرييل سرد القصّة بحماس: «انطلق جدّي من قصر آبائه على ظهر جواده، ومضى كل شيء على ما يرام، حتّى

رأى جوني تمثال الملك بيلي[1]، وسواء أرجعنا ما حصل إلى وقوعه في غرام الحصان الذي كان الملك يمتطيه، أو إلى ظنّه أنه قد عاد مجدّدًا إلى الطاحونة، فإنّه في المُحصّلة قد انبرى يدور حول التمثال».

أعقب غابرييل قوله بالدوران بجرموقه داخل البهو وسط ضحك الآخرين ثمّ عاد إلى قصّته ليُكملها قائلًا:

«مضى جوني يدور ويدور دون توقّف حتّى إنّ الشيخ النبيل، وكان شيخًا وقورًا جدًّا، تملّكه السخط وطفق يُبرطم. تمهّل يا سيّد! ماذا تقصد بهذا السلوك يا سيّد؟ جوني! جوني! أيّ جنون هذا! ما عُدت أستطيع فهم هذا الحصان!».

ما إن تعالى الضحك عقِبَ تجسيد غابرييل للحادثة حتّى قطَعهُ طرْق مُدوٍّ للباب، دفع ماري جين إلى المسارعة بفتحه للزائر الذي لم يكن سوى فريدي مالينس، بقبّعته المائلة إلى الخلف، وكتفيه المحدودبتين من البرد، وأنفاسه المُتقطّعة من فرط الإجهاد وهو يُكافح ليقول:

«لم أتمكّن من الحصول إلاّ على عربة واحدة».

«أوه، سنجد أخرى على رصيف الميناء» صرّح غابرييل بثقة، فأيّدته الخالة كيت قائلة:

«نعم، من الأفضل عدم إبقاء السيّدة مالينس عرضة لتيّار الهواء».

---

(1) تمثال الملك بيلي King Billy's statue: هو تمثال الملك وليام الثالث، وقد تمّ نصبه سنة 1734.

نزلت السيدة مالينس الدرجات الأماميّة بمساعدة ابنها والسيّد براون، وبعد عدّة محاولات حُملت إلى العربة، وصعد فريدي خلفها ليجعلها تستقرّ على المقعد وهو ما أمضى فيه وقتًا طويلًا مدّه السيد براون خلاله بعديد النصائح، حتّى إذا استقرّت المرأة في نهاية المطاف على نحو مريح، دعا فريدي مالينس السيد براون للصعود إلى العربة. وبعد أن تعالى اللغط لبرهة قبِلَ السيّد براون الدعوة وركب، فوضع الحوذيّ دثارًا على ركبتيه، وانحنى ليقرأ العنوان. وما إن فعل حتّى احتدم الجدل من جديد بسبب تضارب التوجيهات المُقدّمة له من فريدي مالينس والسيد براون المُطلّيْن كلّ من إحدى نوافذ العربة. وقد كان مكمن الصعوبة هو تحديد المكان الذي سينزل فيه السيد براون على الطريق، وطبعًا لم تُفوّت الخالة كيت والخالة جوليا وماري جين فرصة التدخّل في النقاش من عند درج الباب الخارجي غير أنّ النتيجة لم تتعدّ حزمة من الاتجاهات المتعارضة والكثير من الضحك. أما فريدي مالينس فقد غلبه الضّحك حتّى ما عاد يستطيع الكلام، لكنّه ظلّ يحرّك رأسه بين داخل النافذة وخارجها مُخاطرًا بإسقاط قبّعته، ليخبر أمه بأطوار تقدّم النقاش، حتى صاح السيد براون في النهاية بالحوذيّ المرتبك، بصوت أعلى من لغط الجميع وضحكهم:

«هل تعرف كليّة ترينتي؟».

«نعم، سيّدي».

«حسنًا، قدْ مباشرةً إلى بوابات كلية ترينتي ثم سنخبرك إلى أين

تذهب. هل فهمت الآن؟».

«نعم، سيّدي».

«انطلق بنا مثل السهم إلى كليّة ترينيتي».

«حسنًا، سيّدي».

ثم ساطَ الحوذيّ الحصان وصلصلتِ العربة على امتداد رصيف الميناء وسط جوقة من الضّحك والتّوديع.

لم يلتحق غابرييل بمن توجّهوا إلى الباب، بل ظلّ في جزء معتم من غرفة الاستقبال مُحدّقًا في الدرج. كانت ثمّة امرأة تقف عند مُنتهى مضمار الدرج الأوّل، غارقة في الظل هي أيضًا. لم يتمكّن من رؤية وجهها، لكنه استطاع أن يرى تنّورتها المُخطّطة بخطوط في لوني الطين والسلمون جعلها الظلّ تبدو وكأنّها سوداء وبيضاء. إنّها زوجته، ولقد كانت تتّكئ على سياج الدرج، مُصغيةً إلى شيءٍ مّا. وإذ تفاجأ غابرييل بسكونها أصاخ السمع هو الآخر متنصّتًا، لكنّه لم يسمع سوى القليل من اللغط والضحك والجدل عند الدرج الأمامي، وبضع نغمات مُتأتّية من عزف على البيانو، وبضع ترانيم بصوت رجل.

ظلّ واقفًا في عتمة غرفة الاستقبال مُحدّقًا في زوجته، ومحاولًا تمييز اللحن الذي ترنّم به ذلك الصوت. كان هناك رونق وغموض في وضعها وكأنّها رمز لشيء مّا، حتّى إنّه سأل نفسه إلامَ ترمز امرأة تقف على الدرج في الظلّ، وتستمع إلى موسيقى نائية؟ ولو أنّه رسّام

لرسمها وهي في ذلك الوضع، فتُركّز قبعةُ اللباد الأزرق الانعكاس البرونزي لشعرها على الخلفيّة المظلمة، وتُبرز الخطوطُ القاتمة لتنّورتها الخطوطَ الفاتحة. ولكان سمّى اللوحة «موسيقى نائية»، لو أنّه حقًّا رسام.

أُغلق باب غرفة الاستقبال، ودخلت الخالة كيت والخالة جوليا وماري جين، وهنّ يواصلن الضحك.

«أليس فريدي شخصًا فظيعًا؟»، سألت ماري جين، ثمّ استطردت مؤكّدة «إنّه بالفعل فظيع».

لم يحر غابرييل جوابًا، بل اكتفى بالإشارة إلى الدرج الذي تقف فيه زوجته. ولمّا كان إيصاد باب غرفة الاستقبال قد جعل الصوت والبيانو مسموعين بوضوح، لم يتردّد في رفع يده نحو النساء الضاحكات ليصمتن. بدت الأغنية مكتوبة وفق الطراز الأيرلندي القديم، وبدا المغني غير متأكّد من كلماته ولا من كفاءة صوته. ولكنّ ذلك الصّوت الذي جعله البُعد وبحّة المغنّي حزينًا، أضفى الكثير من التوهّج على الجملة الموسيقيّة والكلمات المعبّرة عن الأسى:

أوه، إنّ المطر يسقط على ضفائري الكثيفة

والندى يبلّل بشرتي،

وطفلي يستلقي باردًا...

«أوه»، هتفت ماري جين، «إنه بارتل دارسي ولا شكّ، مع أنّه لم يغنّ طوال الليل. سأجعله يغنّي أغنية ما قبل أن يذهب».

«نعم، أرجوك ماري جين»، قالت الخالة كيت بحماس.

أفسحت ماري جين لنفسها الطريق وهرعت إلى الدّرج، ولكن قبل أن تصل إليه توقّف الغناء وأُغلق البيانو فجأة فهتفت:

«أوه، يا للأسف!» ثمّ أردفت قولها بالتساؤل: «هل هو نازلٌ يا غريتا؟».

سمع غابرييل زوجته وهي تُجيب بـ «نعم»، ثمّ رآها تنزل نحوهم، وخلفها ببضع درجات السيد بارتل دارسي والآنسة أوكالاهان. فما كان من ماري جين إلاّ أن انبرت تقول دون مواراة:

«أوه، سيد دارسي إنه لبخل صريح منك أن تبتر غناءك هكذا بينما جميعنا منتشون بالاستماع إليك».

«لقد ظللنا أنا والسيدة كونروي نحاول معه طوال المساء»، أجابتها الآنسة أوكالاهان، ثمّ تابعت: «وكان في كلّ مرّة يقول إنّه مصاب ببرد شديد ولا يستطيع الغناء».

«أوه، سيد دارسي، سيبدو ما قلته أكذوبة كبيرة إن كرّرته الآن» علّقت الخالة كيت بمكر.

«ألَمْ تُلاحظوا أنّني أجشّ الصوت كالغراب؟» تساءل السيد دارسي بخشونة، ثمّ هرع إلى مقصورة المؤن ليرتدي معطفه. أمّا الآخرون، فلم يترك لهم ردّه الفظّ شيئًا ليقولوه. وعلى ضوء ذلك عقدت الخالة كيت حاجبيها وأشارت لهم بأن يتجاوزوا ما جرى. وبعد مُضيّ لحظات من الصمت وقف خلالها السيد دارسي يلفّع

عنقه بحرص وعبوس. قالت الخالة جوليا:

«إنه الطقس»

«نعم، الجميع يعاني من نزلات البرد، الجميع دون استثناء». أكّدت الخالة كيت مؤيّدة أختها. ثمّ أضافت ماري جين: «يقولون إنّنا، لم نمرّ بمثل هذا الثلج منذ ثلاثين عامًا، ولقد قرأت في الصحف هذا الصباح أن الثلج يعمّ جميع أنحاء إيرلندا».

«أحبّ النظر إلى الثلج»، صرّحت الخالة جوليا بحزن.

«وأنا كذلك»، قالت الآنسة أوكالاهان، «أعتقد أن عيد الميلاد لا يكون عيد ميلاد حقًّا إلاّ إذا اقترن بتغطية الثلج للأرض».

«ولكن السيد دارسي المسكين لا يحبّ الثلج»، علّقت الخالة كيت متبسّمةً.

حين عاد السيد دارسي من مقصورة المؤن، عاد متدثّرًا تمامًا ومزرّر الثياب، وما إن أطلع الجماعة بنبرة ملؤها الأسى على تفاصيل إصابته بالبرد، حتّى أمطروه بكمّ هائل من النصائح المُختلِفة، مؤكّدين أسفهم الشديد لما لحقه، وحاثّين إيّاه على الالتزام بوقاية حنجرته من هواء الليل.

لبث غابرييل يراقب زوجته، فهي لم تشارك في الحديث بل ظلّت تقف مباشرة تحت نافذة صغيرة مغبّرة ونور المصباح الغازيّ ينعكس على شعرها الملوّن بدرجات مُختلفة من البرونزي، وكان قد رآها قبل بضعة أيّام وهي تجلس أمام الموقد لتجفيفه في وضع

مماثل لوضعها ذاك. بدت غير مدركة للحديث الدائر حولها، وفي نهاية المطاف استدارت نحوهم فرأى غابرييل تورّد خدّيها، ولمعان عينيها، وشعر بمدّ مفاجئ من الفرح يتدفّق إلى قلبه. أمّا هي فالتفتت إلى السيد دارسي وسألته:

«سيد دارسي، ما اسم الأغنية التي غنّيت؟».

«اسمها فتاة أوغريم[1]، لكنّي لم أستطع تذكّرها تمامًا» أجاب السيد دارسي، ثمّ سأل هو بدوره: «لماذا؟ هل تعرفينها؟».

«فتاة أوغريم، نعم، بيد أنّي عجزت عن تذكّر الاسم».

«إنه لحن لطيف للغاية»، قالت ماري جين متفاعلة مع الحديث الدائر، ثمّ توجّهت إلى بارتل دارسي بالقول: «أنا آسفة لأن صوتك ليس على ما يرام هذه الليلة».

«ماري جين، لا تزعجي السيد دارسي، لا أريد لأحد أن يزعجه» قالت الخالة كيت. وإذ لاحظت أن الجميع كانوا مستعدّين للانطلاق، قادتهم إلى الباب، وتمنّت لهم ليلة سعيدة.

«حسنًا، ليلة سعيدة يا خالة كيت، وشكرًا على الأمسية اللطيفة».

«ليلة سعيدة يا غابرييل، ليلة سعيدة يا غريتا!».

«ليلة سعيدة، يا خالة كيت، وشكرًا جزيلًا. ليلة سعيدة يا خالة جوليا».

---

(1). فتاة أوغريم The Lass of Aughrim: أغنية أيرلندية ريفية، وأوغريم جزء من ريف غالواي.

«أوه، ليلة سعيدة، يا غريتا. لم أرك».

«ليلة سعيدة يا سيد دارسي، ليلة سعيدة يا آنسة أوكلاهان».

«ليلة سعيدة، آنسة موركان».

«ليلة سعيدة، مُجدّدًا».

«ليلة سعيدة لكم جميعًا، تصلون بأمان».

«ليلة سعيدة، ليلة سعيدة».

كان الصباح ما يزال معتمًا، وقد غشى ضوء أصفر باهتٌ البيوتَ والنهرَ فبدت السماء من خلاله وكأنّها تنحدر. وكانت الأرض موحلةً بفعل ذوبان الثلج الذي لم يبق منه سوى نُدف على الأسطح، وعلى حواجز رصيف الميناء، وعلى أسيجة الساحات. وتحت ضوء المصابيح الذي واصل التوهّج في الهواء القاتم، انتصب قصر المحاكم الأربع[1] على ضفّة النهر وكأنّه يتوعّد السماء الثقيلة.

سارت غريتا في الأمام مع السيد بارتل دارسي، وحذاؤها المغلّف في لفافة من الورق البنيّ موضوع تحت إحدى ذراعيها، ويداها ترفعان تنورتها عن الوحل. ولئن لم يبق لها شيء من رونق وضعها السابق، فإنّ عيني غابرييل ظلّتا تبرقان بسعادة تدفّق لها الدم في عروقه، واضطربت الأفكار في رأسه. أفكار فخورة، مبتهجة، حنونة، ونبيلة.

---

(1) قصر المحاكم الأربعة The palace of the Four Courts: مبنى القضاء الأيرلندي الذي تم إنشاؤه عام 1796، على الضفة الشمالية لنهر ليفي.

كانت تسير أمامه بخفةٍ منتصبةَ القامة، حتى إنّه تاق للركض وراءها دون صخب، والإمساك بها من كتفيها ووشوشة عبارة خرقاء وعاطفيّة معًا في أذنها. لقد بدت له هشّة جدًا إلى حدٍّ جعله يتوق إلى حمايتها من أيّ خطر مّا، ثم الاختلاء بها. برقت في ذاكرته لحظات من حياتهما الحميمة كما تبرق النجوم: لحظة تربيته على مظروف بنفسجيّ بجانب فنجان قهوة الفطور بينما الطيور تغرّد فوق نبات اللبلاب ونسيج من خيوط الضوء يغمر الأرضيّة وهو غير قادر على الأكل من فرط السعادة. ولحظة وقوفهما على رصيف مزدحم، ودسّه تذكرةً في راحة قفازها الدافئة. كانَ واقفًا إلى جانبها في البرد، ينظران عبر نافذة مسيّجة إلى رجل مُنشغل بتشكيل قناني الزجاج على نار فرن ملتهب. وكان البرد شديدًا، ووجهها الفائح عطره في الهواء البارد قريبًا جدًا من وجهه، وفجأة نادت الرجل الواقف بجانب الفرن:

«هل النار حارّة، يا سيدي؟».

لكن الرجل لم يستطع سماعها جرّاء ضجيج الفرن. وكان ذلك أفضل، فلو أنّه سمعها لربّما أجابها بوقاحة.

انبثقت من قلبه موجةُ فرحٍ أكثر نعومةً وفاضتْ في دفقٍ دافئ على امتداد شرايينه. لقد كانت لحظات حياتهما معًا مثل الوميض الخافت للنجوم، وها إنّ تلك الحياة التي لم يعرفها أحد، ولن تتسنّى معرفتها لأحد أبدًا، تتوهّج في ذاكرته. كان يودّ أن يذكّرها بتلك اللحظات، وأن يجعلها تنسى سنوات وجودهما الباهت معًا

فلا تحفظ سوى لحظات النشوة، لشعوره بأنّ السنين لم تُذوِ روحه أو روحها، وأن تربية أطفالهما، وكتاباته، وشؤونهما البيتيّة، لم تخمد جذوة النار في روحيهما تمامًا. وهو القائل لها في إحدى الرسائل التي كتبها إليها: «لماذا تبدو مثل هذه الكلمات باهتة وباردة؟ هل لأنه لا توجد كلمة ناعمة بما يكفي لتكون اسمك؟».

استحضر تلك الكلمات التي كتبها لها في ما مضى مثلما يُستحضر لحن قديم. ولفرط شوقه إلى الاختلاء بها حدّث نفسه بأنّه حين يرحل الآخرون، ويجتمع بها في غرفة الفندق، ويكونان وحدهما، سوف يناديها بهدوء:

«غريتا!».

ربما لن تسمعه للوهلة الأولى، لانشغالها بخلع ملابسها، ولكنّها بعد ذلك سوف يُحرّكها شيء ما في صوته، وسوف تستدير لتنظر إليه...

عند زاوية شارع واينتاڤيرن وجدوا عربة واستقلّوها. ولقد سعد غابرييل بطقطقتها الصاخبة لتجنيبها إيّاه تبادل الحديث. وهو ما جعل غريتا تكتفي بالنظر من النافذة وقد بدا عليها التعب. والآخرين لا ينطقون سوى ببضع كلمات وهم يُشيرون إلى بعض المباني أو الشوارع. وبينما كان الحصان يخبّ بضجر تحت سماء الصباح القاتمة، جارًّا صندوقه المقرقع القديم خلف قوائمه، وجد غابرييل نفسه معها مرة أخرى، في عربة أخرى تخبّ بهما للحاق بالباخرة، منطلقة بأقصى سرعة نحو شهر العسل.

ومع عبور العربة فوق جسر أوكونل، قالت الآنسة أوكالاهان:

«يقولون إنّ المرء لا يعبر جسر أوكونل إلاّ ويرى حصانًا أبيض».

«أنا أرى رجلًا أبيض هذه المرة»، أجاب غابرييل.

«أين؟»، سأل السيد بارتل دارسي.

أشار غابرييل إلى تمثال مغطّى بندف الثلج، ثم أومأ إليه بحركة مألوفة ولوّح بيده قائلًا بمرح:

«ليلة سعيدة، يا دان».

وما إن توقّفت العربة أمام الفندق حتّى قفز غابرييل إلى الخارج ودفع إلى الحوذيّ أجرته، على الرغم من احتجاج السيد بارتل دارسي، بل إنّه نفحه شلنًا إضافيًّا، وإذ حيّاه الرجل قائلًا: «ليكن عامك مليئًا بالتوفيق يا سيدي». أجابه بحرارة: «وكذلك عامك».

استندت غريتا إلى ذراعه لحظةً وهي تغادر العربة، وكذلك عندما وقفت على الرصيف متمنّية مساءً سعيدًا للآخرين. كان استنادها على ذراعه خفيفًا، كخفّته عندما راقصته قبل ساعات قليلة، لقد شعر وقتها بأنّه فخور وسعيد، سعيد لأنها تخصّه وحده، وفخور بجمالها وبحسن تصرفها كزوجة. أمّا وقد استيقظت فيه الكثير من الذكريات، فإنّ أول لمسة من جسدها الاستثنائيّ المتناسق والمعطَّر بعثت فيه دفقًا جارفًا من الرغبة. فراح تحت غطاء صمتها يضغط على ذراعها ليقربها منه أكثر. وإذ وقفا أمام باب الفندق شعر بأنهما قد هربا من حياتهما وواجباتهما اليوميّة، ومن المنزل والأصدقاء، وانطلقا معًا بقلبيْن جامحيْن متوهّجيْن إلى مغامرة جديدة.

كان ثمّة في البهو رجل مسنّ غاف على كرسيّ ضخم مغلّف بالقماش، وما إن وصلا حتّى نهض وأشعل شمعةً في المكتب وتقدّمهما إلى الدرج، فتبعاه في صمت وأقدامهما تدوس على البساط السميك بصوت مكتوم. اعتلتِ غريتا الدَّرج خلف البوّاب، رأسها منحن، وكتفاها الضعيفتان محدودبتان كمن يحمل عبئًا، وتنّورتها مشدودة حولها بإحكام. ولكم ودّ غابرييل أن يمدّ ذراعيه حول وركيها ويمسك بها، حتّى إنّ تلكما الذراعين راحتا ترتجفان من فرط الرغبة في ضمّها، ولم يتصدّ لرغبته الجسديّة الجامحة إلاّ بضغط أظفاره على راحتي يديه. وإذ توقّف البواب على الدرج لتسوية شمعته التي أخذت تذوب، توقّفا هما أيضًا على بعد بضع درجات منه. وفي ذلك الصمت المطبق، تسنّى لغابرييل أن يسمع وقع الشمع الذائب وهو يقطر على الصحن، ونبضات قلبه بين أضلاعه.

قادهما البوّاب على امتداد الرواق، ثمّ فتح بابًا ووضع الشمعة المتداعية على طاولة قريبة، وسألهما عن الساعة التي يودّان أن يوقظهما فيها صباح الغد.

«فلْتكن الثامنة». قال غابرييل.

وحالما أشار البواب إلى مفتاح الضوء الكهربائي وغمغم معتذرًا قاطعه غابرييل قائلًا:

«لا نريد أي ضوء، لدينا ما يكفي من ضوء الشارع» ثمّ أضاف مشيرًا إلى الشمعة، «ويمكنك أن تُسدي لنا معروفًا أيّها الرجل الطيّب بحَمْلِك هذا الشيء الجميل معك».

حمل البواب شمعته ثانيةً، ولكن بتأنٍّ، لتفاجئه بذاك المُقترح غير المألوف. ثم غمغم: «ليلة سعيدة» وخرج. وأوصد غابرييل باب الغرفة.

كان شعاع النور الشاحب لمصباح الشارع يمتدّ عبْر النافذة حتى الباب. ولكي يُهدّئ غابرييل من عاطفته قليلًا رمى معطفه وقبّعته على الأريكة وتقدّم نحو النافذة لينظر منها إلى الشارع. ثم لم يلبث أن التفت واتّكأ على الخزانة مديرًا ظهره إلى الضوء. ولمّا كانت غريتا قد خلعت قبعتها ومعطفها، ووقفت أمام مرآة كبيرة منشغلة بفكّ الحزام عن خصرها. فإنّه ظلّ لبضع لحظات يُتابعها ثم قال:

«غريتا!».

أشاحت عن المرآة ببطء وسارت نحوه على امتداد شعاع الضوء. ولفرط ما بدا وجهها جدّيًا ومرهقًا لم يستطع غابرييل أن ينبس ببنت شفة. لا، لم تحن اللحظة المناسبة بعد.

«تبدين متعبَةً»

«بعض الشيء»

«أتشعرين بتوعّك أو بضعف مّا؟».

«كلاّ، أنا متعبة فحسب».

قالت ذلك وذهبت إلى النافذة ووقفت عندها، متطلّعةً إلى الخارج. فمكث غابرييل ينتظر مرةً أخرى، وإذ خشي أن يغلبه التردّد، قال فجأة:

«بالمناسبة، غريتا».

«ماذا هناك؟».

«أنت طبعا تعرفين ذلك المسكين مالينس، أليس كذلك؟»

«نعم، ما به؟».

«حسنًا، إنّه شخص طيّب القلب»، قال غابرييل بنبرة لا تخلو من التصنّع ثمّ تابع «حتّى إنّه أعاد إليّ ذلك الجنيه الذهبي الذي أقرضته إيّاه، والحقّ أنّني لم أكن أتوقع ذلك. من المؤسف ألاّ يستطيع الابتعاد عن ذلك الـمدعو براون، فهو في جوهره فتى غير سيّء بالمرّة».

أخذته الرجفة من شدّة الانزعاج. لماذا تبدو ذاهلةً جدًا؟ لم يعرف من أين عليه أن يبدأ. هل هي أيضًا منزعجة لسبب ما؟ آه لو أنّها تستطيع أن تستدير نحوه، أو أن تأتي إليه من تلقاء نفسها! إذ سيكون من التوحّش أن يأخذها وهي على تلك الحال. يجب أن يرى بعض الرغبة في عينيها أوّلًا. إنّه ليتحرّق شوقًا إلى السيطرة على حالتها المزاجيّة الغريبة تلك.

«متى أقرضته الجنيه؟» سألته بعد برهة من الصمت.

كافح غابرييل كي يمنع نفسه من كيل الشتائم لمالينس الثَّمل وجنيهه. كان يشتهي أن يتوجّه إليها بنداء من أعماق روحه، أن يسحق جسدها بجسده، وأن يُهيمن عليها. لكنّه قال:

«أوه، حدث ذلك في عيد الميلاد، عندما افتتح ذلك المحلّ الصغير لبيع البطاقات البريديّة، في شارع هنري».

ولفرط استعاره غضبًا ورغبة لم ينتبه إليها وهي تترك النافذة وتتقدّم نحوه، ثمّ تقف أمامه للحظة ناظرة إليه بغرابة، ودون سابق إنذار ترفع نفسها على رؤوس أصابعها وتريح يديها بخفّة على كتفيه، وتقبّله قائلة.

«أنت شخص كريم جدًا، يا غابرييل».

لبث يرجف بفرح لقبلتها المفاجئة وسحر عباراتها، وقد وضع يديه على شعرها وشرع يمسّده بأصابع تنزلق فوقه انزلاقًا، وقد جعله الغَسلُ أملسَ برّاقًا. كان قلبه مفعمًا بالسعادة، فما إن رغب فيها حتّى جاءت إليه من تلقاء نفسها، لعلّ أفكارها كانت تجري في المنحى نفسه لأفكاره، ولعلّها شعرت بالرغبة الجامحة التي تملّكته فدفعها ذلك إلى الاستسلام له. أمّا وقد ارتمت بين أحضانه بسهولة، فإنّه طفق يتساءل عن سرّ شعوره بالتردّد.

لبث واقفًا ورأسها بين يديه، ثم مرّر ذراعه برشاقة على جسدها واجتذبها نحوه، سائلًا بهدوء:

«غريتا، عزيزتي، ما الذي تفكرين فيه؟».

لم تجب ولم تستسلم كليًا لذراعه. فكرّر بالهدوء نفسه:

«أخبريني بالأمر غريتا. أعتقد أنني أعرف ما هو. هل أعرف ذلك فعلًا؟».

لم تجب على الفور. ولكنّها لم تلبث أن قالت وقد غلبتها دموعها:

«أوه، أفكّر في تلك الأغنية، فتاة أوغريم».

انفصلت عنه وأسرعت إلى السرير، لترمي ذراعيها على حوافّه، وتدفن وجهها فيه، أمّا غابرييل فقد ظلّ جامدًا مشدوهًا للحظة ثم تبعها، وإذ مرّ أمام المرآة تسنّى له أن يرى صورته كاملة: القميص الواسع الذي يرتديه، الوجه الذي ما انفكّ تعبيره يحيّره كلما رآه في المرآة، والنظّارة البرّاقة ذات الإطار المذهّب. وبتوقّفه على بضع خطوات منها قال:

«ما خطب هذه الأغنية؟ ولماذا جعلتك تبكين؟».

رفعت رأسها وجفّفت عينيها بظاهر يدها كطفل. وإذا بصوته يخرج بنبرة أكثر لطفًا ممّا كان يقصد.

«لماذا يا غريتا؟»، سألها.

«تذكّرت شخصًا اعتاد أن يغني تلك الأغنية في زمن مضى».

«ومن هو هذا الشخص؟»، سأل غابرييل، مبتسمًا.

«شخص عرفته في غالواي عندما كنت أعيش مع جدتي».

تلاشت الابتسامة من وجه غابرييل، واجتاحه غضب عارم مجدّدًا، وعادت نيران شهوته إلى التأجّج في عروقه على نحو أخطر ممّا سبق.

«شخص مّا كنت تحبّينه؟»، سألها بسخرية.

«كان شابًا عرفته، اسمه مايكل فيوري، ولقد اعتاد أن يغنّي تلك الأغنية: فتاة أوغريم. كان رقيقًا جدًا».

مكث غابرييل صامتًا. فهو لا يُريدها أن تُخمّن أنّه مُهتمّ بهذا الفتى الرقيق. لكنّها استطردت بعد برهة قائلة: «ما أزال أستطيع رؤيته بوضوح، بعينيه الواسعتين السوداوين! وذلك التعبير الصادر منهما! ويالهُ من تعبير!».

«أوه، لقد كنتِ مغرمةً به إذن؟».

«اعتدت الخروج للتنزّه معه حين كنت في غالواي».

طافت فكرة مّا بذهن غابرييل فقال ببرود:

«ربما لأجل ذلك أنت ترغبين في الذهاب إلى غالواي مع تلك الفتاة ايثورز».

نظرت إليه بدهشة وسألته:

«لمَ؟».

أشعرته نظرتها بالحرج، فهزّ كتفيه وقال:

«ومن أين لي أن أعرف؟ ربّما لرؤيته».

أعرضت عنه في صمت وراحت تتّبع شعاع الضوء باتجاه النافذة.

«إنه ميّت»، قالت بتأنّ، ثمّ أضافت: «مات وهو في السابعة عشرة لا أكثر. أليس أمرًا مريعًا أن يموت وهو في هذا العمر الصغير؟».

«وماذا كان يعمل؟» سألها غابرييل، بنبرة ماتزال ساخرة.

«كان يعمل في مصنع الغاز».

شعر غابرييل بالمهانة لفشل سخريته، ولاستحضار ذكرى شخص من بين الأموات، ذكرى فتى كان يعمل في مصنع الغاز. وبينما استغرق هو في ذكريات حياتهما الحميمة، تلك الذكريات المُفعمة بالرقّة والفرح والرغبة، كانت هي تقارنه في ذهنها بشخص آخر. اجتاحه وعيٌ مخجل بحاله، بدت له شخصيته خرقاء، فهو إمّا ذلك الصبيّ العصبيّ والعاطفيّ مع خالتيه، أو ذاك الخطيب بين السوقة المُغلّف لشهواته المثيرة للشفقة بغلاف المثاليّة، وفي كلتا الحالتين هو ذلك الأبله التافه الذي لمحه في المرآة. وبحركة غريزيّة أمعن في إيلاء ظهره للضوء لئلاّ ترى العار الذي يُلطّخ جبينه.

حاول الحفاظ على نبرة الاستجواب البارد، ولكنّ صوته جاء مُتواضعًا وفاترًا وهو يقول:

«أظنّك كنت عاشقة لمايكل فيوري هذا يا غريتا أليس كذلك؟».

«كنت على ما يرام معه في ذلك الوقت». أجابته بحسم.

بدا صوتها مكتومًا وحزينًا، وإذ شعر غابرييل بأنّه من العبث أن يحاول توجيهها إلى غايته المنشودة ربّت على يدها وقال بصوت حزين هو أيضًا:

«وما علّة موته وهو بعد شابّ يا غريتا؟ أهي السّل؟».

«أعتقد أنه مات من أجلي».

سيطر رعبٌ مُبهم على غابرييل إثر تلك الإجابة، وكأنّه لحظة

أملَ بالانتصار قام كائنٌ مّا غير مرئيّ وحقود بحشد قوى عالمه الغامض ضدّه، لكنّه واجه ذلك بتحكيم العقل واستمرّ في التربيت على يدها دون طرح أسئلة أخرى لشعوره بأنها سوف تتحدّث من تلقاء نفسها. كانت يدها دافئة ورطبة، ولئن لم تستجب للمسته، فإنّه واصل التربيت عليها تمامًا كتربيته على أول رسالة تلقّاها منها في صباح ذلك الربيع. وبالفعل، لم تمض لحظات حتّى قالت:

«حدث ذلك في فصل الشتاء، مع بداية الشتاء تقريبًا، عندما كنت أتهيّأ لمغادرة بيت جدّتي والقدوم إلى هنا للالتحاق بالدّير. كان وقتئذ مريضًا وقابعًا في مسكنه بغالواي وغير مسموح له بالخروج، ولقد تمّت مُراسلة أهله في أوترارد[1] بشأنه. إذ قيل إنّه يحُتضر، أو شيء من هذا القبيل. لست على بيّنة تامّة من ذلك».

توقفت لبرهة وتنهّدت ثمّ تابعت:

«المسكين، كان مُتيّمًا بي، وكان فتى لطيفًا. اعتدنا أن نخرج معًا للتنزّه، وأنت تعلم يا غابرييل، مثل ذلك يحدث باستمرارٍ في الرّيف. كان يريد أن يدرس الغناء لكنّ صحته خذلته. مع أنّ صوته رائع جدًا، مسكين مايكل فيوري».

«حسنًا؛ وماذا بعد ذلك؟»، سألها غابرييل.

«بحلول موعد مغادرتي غالواي وذهابي إلى الدّير كان حاله قد ازداد تردّيًا، حتّى إنّهم لم يسمحوا لي برؤيته، فما كان منّي إلاّ أن

(1) أوترارد Oughterard: بلدة صغيرة شمال غرب غالواي، تقع على ضفة نهر أوينريف.

كتبت له رسالة قلت له فيها إنّني ذاهبة إلى دبلن وإنّني أنوي العودة في الصيف، على أمل أن يكون عندئذ قد تحسّن».

توقّفت برهةً لتُسيطر على صوتها، ثم تابعت:

«في الليلة التي سبقت مغادرتي، وبينما كنت في منزل جدّتي بجزيرة الراهبات[1]، أحزم أمتعتي، سمعت وقع حصىً أُلقيَ على النافذة، ولفرط ما كان البلّور مبلّلا لم أتمكّن من الرؤية، فركضت إلى الطابق السفلي وتسلّلت من الباب الخلفي إلى الحديقة، وإذا برفيقي المسكين واقف في نهاية الحديقة مرتجفًا من رأسه حتّى أخمص قدميْه».

«ألم تطلبي منه أن يعود من حيث أتى؟»، سألها غابرييل.

«توسّلت إليه أن يعود إلى البيت حالًا، ونبّهته إلى أنّه قد يموت تحت المطر، لكنّه قال إنّه لا يريد أن يعيش. ها إنّي أرى عينيه بوضوح! كان يقف عند نهاية الجدار بالقرب من الشجرة».

«وهل عاد إلى البيت؟»، سألها غابريل.

«نعم، عاد إلى البيت، وبعد مُضيّ قُرابة الأسبوع على التحاقي بالدير مات، وتمّ دفنه في أوترارد، بلدة أهله، أوه، يا لليوم الذي سمعت فيه أنّه... أنّه مات!».

توقّفت عن السرد مختنقةً بدموعها، وإذ غلبتها عاطفتها، ارتمت

---

(1) ننز آيلند (أو جزيرة الراهبات) Nuns Island: ليست جزيرةً حقيقيّة ولكنه اسم منطقة في غالواي.

على السرير، ودفنت وجهها في اللحاف وراحت تنشج. أمسك غابرييل بيدها للحظة أطول من ذي قبل، وبعد أن تردّد قليلًا، وتحت وطأة الخجل من التطفل على حزنها، ترك يدها تسقط بلطف على السرير، وسار إلى النافذة في صمت تامّ. أما هي فسرعان ما غلبها النعاس.

نظر غابرييل إليها للحظات -وهو متكئ على كوعيه- دون أيّ ضغينة. نظر إلى خصلات شعرها المتداخلة وإلى فمها نصف المفتوح، منصتًا إلى أنفاسها العميقة. إذن، لقد كان لها في ما مضى تلك العلاقة العاطفية في حياتها: رجل مات من أجلها. لم يتألّم كثيرًا للتفكير في مدى ضآلة الدور الذي يمثله هو، زوجها، في حياتها. وإذا راح يُراقبها وهي نائمة، بدا له أنّهما لم يعيشا معًا كزوجين. وباستقرار عينيه الفضوليتين طويلًا على وجهها وشعرها، وتفكيره في ما كانت عليه آنذاك، في زمن جمالها الأول كصبيّة، وجد نفسه بصدد إجراء مقارنة غريبة ولكن ودّية تمامًا. ولئن لم يشأ الاعتراف، حتى لنفسه، بأن وجهها لم يعد جميلًا، فإنّه كان يُدرك تمامًا أنّه في جميع الأحوال لم يعد ذلك الوجه الذي تحدّى مايكل فيوري الموتَ من أجله.

لعلّها لم تخبره بكلّ القصّة. انتقلت عيناه إلى الكرسي الذي ألقت عليه بعض ملابسها: رباط تنّورة يتدلّى حتّى الأرض، وفردة حذاء تنتصب قائمةً وقد سقطت حافتها العلوية الرخوة، بينما الفردة الأخرى متّكئة بجانبها. ولكم تعجّب من فوران مشاعره الذي كان قبل ساعة، أيّ أمر وراء انبثاقها؟ أهو عشاء خالته؟

أم هي خطبته الحمقاء؟ أم النبيذ والرقص؟ أم المرح أثناء تبادل الأماني بليلة سعيدة في غرفة الاستقبال؟ أم متعة التنزّه قرب النهر تحت الثلج؟ يا للخالة جوليا المسكينة! هي أيضًا، سوف تصبح عمّا قريب طيفًا يلتحق بطيف پاتريك موركان وحصانه. لقد تبيّن تلك النظرة المنهَكة على وجهها، تبيّنها لوهلةٍ أثناء غنائها «تزيّنتْ لحفل الزفاف». سوف يجلس، وربما قريبًا، في غرفة الاستقبال نفسها، مرتديًا ملابس سوداء، وقبعته الحريرية على ركبتيه. ستُسدَل الستائر وستجلس الخالة كيت بجانبه وهي تبكي وتمخط مُخبرة إيّاه بكيفيّة موت جوليا. وسيبحث في ذهنه عن كلماتٍ تواسيها، ولن يجد سوى بعض الكلمات العرجاء عديمة الفائدة. نعم، نعم، ذلك ما سيحدث قريبًا جدًا.

أثلج هواءُ الغرفة كتفيه، فتمدَّد بحذر تحت الغطاء بجانب زوجته. لقد كانوا يتحوّلون إلى أطياف الواحد تلو الآخر. وإنّه ليُفضّل أن يتمّ العبور إلى ذلك العالم الآخر بجرأة، وفي ذروة شغف مّا، على التلاشي والذوبان بكآبة بفعل الهرم. فكّر في تلك المستلقية إلى جانبه وفي إقفالها قلبها لسنوات عديدة على صورة عيني حبيبها وهو يخبرها بأنّه لا يُريد أن يعيش.

ملأ دمع كثيف عيني غابرييل. فلئن لم يسبق له، هو نفسه، أن شعر بشيء شبيه إزاء أيّ امرأة، فإنّه عرف أنّ مثل ذاك الشعور هو ما يجب أن يُسمّى حبًّا. ازدادت الدموع في عينيه كثافة، وتخيّل في الظلمة الجزئيّة أنه رأى طيف شابّ يقف تحت شجرة تقْطُر، بل لقد

كانت ثمّة أطياف أخرى قريبة. ثمّ أخذت روحه تقترب من تلك المنطقة التي تقطنها حشود واسعة من الأموات. كان واعيًا، لكنّه لم يستطع أن يعقل وجودها المتفلّت والمرفرف، فتابعت هويّته تلاشيها في عالم رماديّ غير محسوس، أمّا العالم المُتماسك نفسه، ذاك الذي رعاه هؤلاء الأموات ذات مرة وعاشوا فيه، فكان يذوب ويتضاءل.

نقرات قليلة على الزجاج جعلته يلتفت نحو النافذة. لقد بدأت تثلج مرةً أخرى. شاهد وهو شبه نائم ندف الثلج، فضيةً وقاتمةً، تتساقط متأرجحةً على ضوء المصباح. لقد حان الوقت لكي ينطلق في رحلته غربًا. نعم، كانت الصحف محقّةً: « الثلج يعمّ جميع أنحاء إيرلندا، إنّه يتساقط على كل ركن من السهل الأوسط المعتم، وعلى التلال الجرداء، يتساقط برفق على مستنقع ألِن[1]، وأبعد منه غربًا، وبالرفق ذاته يتساقط على أمواج نهر شانون[2] المعتم المتمرّدة. ويتساقط، أيضًا، على كل ركن من فناء الكنيسة المهجور فوق التلّة حيث دُفن مايكل فيوري. يجثم بكثافة على الصّلبان المعوجّة وشواهد القبور، على حراب البوابة الصغيرة، وعلى الأجمات العارية. تتلاشى روحه تدريجيًّا وهو ينصت إلى الثلج يتساقط متمهّلًا عبر الكون، كما عند حلول الساعة الأخيرة، لكلّ الأحياء والأموات.

(1) . مستنقع ألِن Bog of Allen: على بعد 25 ميلاً تقريبًا جنوب غرب دبلن.
(2) . شانون Shannon: أطول أنهار أيرلندا، يفصل الشمال عن الجنوب والشرق.

أموات جيمس جويس الأحياء

إنّ تعدّد المعاني (أو «بلبلة اللغة»، كما يقول موراي مكآرثر[1]، أو توطين اللغة في بابلَ أبديّةٍ) على جميع المستويات، وفي جميع الأمكنة، يجعل قرّاء جيمس جويس ينتبهون إلى مقدرتهم الطبيعية على التذكّر. وهي مقدرةٌ ذات جدوى إنقاذيّة (لتفادي الاحتمالات الجانبيّة التي يضعنا ج.ج. في عمقها) وذات جدوى تفضيليّة تعتمد على المقارنة (لتكثيف الظنون الخارجية التي تشي بها الاحتمالات). إنّ الاحتمالات والظنون هي صندوق الأدوات الضروريّ لكلّ قارئ يرغب في قياس قابليّته بين طرفين: الاكتفاء بالوضوح أو الانفتاح على أقصى حدّ للدلالة، هذا ما يستطيع أن يعتمد عليه إذا كانت ذاكرته «صحيحة كالبريد» وكان قادرًا على حمايتها من التشتيت المتعمَّد.

في مقابل «بناء لغويّ في أقصى حدّ من واحديّة المعنى» سعى ج. ج. «إلى أقصى درجة من تعدّدية المعني، وإلى تكثيف كل عنصر من عناصر اللغة في الحد الأقصى للدلالة»[2]. المسعى الجويسي يدمّر

(1) McArthur, Murray; The Example of Joyce: Derrida Reading Joyce, James Joyce Quarterly, Vol. 32, No. 2,1995, p. 227.

(2) في أحد أعماله المبكّرة (إدموند هوسرل: أصل الهندسة) يجعل دريدا كلّا من جويس وهوسرل مثالَيْن محتملَيْن لممارسات الكتابة: «تطلّعَ هوسرل إلى بناء لغوي في أقصى حد من واحديّة المعنى، إلى لغة قادرة على الحفاظ على الذاكرة أو التاريخ بأكبر قدر من

الذاكرة، ولكي يكون القارئ وفيًّا للنص، إذا كان لهذا أيّ معنى على الإطلاق، فإنّ عليه أن يعمل ضد مسعى ج.ج. نفسه. في ما يتعلّق بالكاتب فإنّ استحالة ولادة نصٍّ دون ذاكرة قويّة قد يتم تعويضها بالكثير من الشّغف، وهو أمرٌ مقنع لقارئ لا يهتم بالتجنيس أو يلتزم بالقواعد النقديّة، ولكن مثل هذا الشّكل هو بالتأكيد استثنائيّ ولا يعيش، أو لا يجب أن يعيش، طويلًا. أكثر الكتّاب إقناعًا لقرّائهم لا بد لهم من ذاكرة قويّة أثناء الكتابة، حتّى وهم يقومون بتدمير ذاكرة القراءة. إنّ المقدرة غير العادية على التذكّر، أو فرط التذكّر hypermnesia، لا يحدث بصدمة خارجية، أو بمحفّز معدّ مسبقًا، بل بالمزيد من التداخل مع الكتابة، بالمزيد من التفكير فيها، بعد إغلاق بابها الخارجي، لكيلا يتبقّى أمام المُمارس سوى قابلياته الذاتية. لقد كان ج.ج. بارعًا في استخدام ذاكرته القويّة، حتى إنّ الكثيرين يميلون إلى اعتبار نصوصه السرديّة نوعًا من الصور المُعاد إنتاجها بتهكّم عن حياة عاشها بكآبة وإحباط، أو هي، بتقديرٍ ما، ظلّ عميق لأحداث هذه الحياة، وهي تنزاح في المجمل كاشفةً تفاصيل صغيرة ما كان لها أن تتخلّد لولا تلك الستارة من التظليل (إضفاء الظلال).

في «الأموات» توبعت حركة غابرييل كونروي وغريتا بوصفهما

الوضوح. أمّا جويس فقد سعى إلى أقصى درجة من تعدّدية المعني، إلى تكثيف كل عنصر من عناصر اللغة مع الحد الأقصى للدلالة». إنّ هذا الاقتباس ليس متماثلًا، وفقًا لمكآرثر، على الرغم من أن كل ممارسة تعترف بضرورة الأخرى أثناء الكتابة. (مكآرثر، المرجع السابق).

ج. ج. ونورا، زوجته، بل إن مايكل فيوري عشيق غريتا القديم في غالواي ليس سوى الصبي مايكل بودكين عشيق نورا في غالواي، ثمّة أحداث/ شخصيات أخرى تأتي من خارج النص لتقيم فيه، ونحن نعثرُ دائمًا على ظلّ جويس في شخوصه، كما في ليوبولد بلوم L. Bloom عوليس Ulysses، وقد كُتب الكثير عن ظلال ج.ج. الواضحة والمعتمة والبعيدة والمجسّمة والشبحية والمحسَّنة والناقصة والمتضخّمة والمهزولة أو حتى المُساء إليها أو غير المقبولة، ولكنه في «الأموات» يبدو واضحًا كما يحبّ أن يعرّف هو بنفسه، وإلى جانبه نورا، مع ملاحظة أن لوحـ(ا)ـتها ليست أوفر حظًّا من لوحـ(ا)ـته في ضبابيتها وصعوبة تثبيتها وإعادة استظهارها، ولعلّها في «الأموات» مصحّحة وأكثر وضوحًا ممّا هي عليه تحت ظلالٍ عديدة أخرى.

الأختان كيت وجوليا (الخالتان، أو العمّتان أحيانًا) تستضيفان حفلًا راقصًا سنويًّا في جزيرة «أشر» Usher، يأتي أعضاء العائلة والأصدقاء وأصدقاء العائلة. جميعهم ينتمون إلى الطبقة المتوسّطة، وبعضهم يحنّ إلى دمِ النّبالة، وأكثرهم موسيقيٌّ أو مهتمٌّ بالموسيقى؛ يأتون جميعًا إلى منزل كيت وجوليا في «جزيرة أشر»، ولكن «أشر» ليس جزيرة حقيقيّة[1]. إنّ الضيوف يذهبون إلى جزيرة يعرفون أنها ليست كذلك. أشر usher من ناحية أخرى هو الدليل الذي يرشد الناس إلى أمكنتهم في صالات المسارح المعتمة، ألا يبدو أنّ الآنستين

(1). جزيرة أشر Usher: اسم المنطقة التي تعيش فيها كيت وجوليا، وهي في دبلن على ضفة نهر ليفي.

المستّتين هما المكان-الدليل نفسه، أي «أشر»؟ إننا إذ نجتاز العنوان (الأموات)، نبدأ مع «ليلي» Lily. وهو اسمُ فتاة سوف يتكرّر، لكن أهي فتاةٌ فقط؟ اسمها يعني أيضًا زهور البنفسج التي تراها في الجنائز وتوديع الأموات، ثم يظهر غابرييل؛ إذا كنتَ تفكّر هكذا فإنّ غابرييل (جبريل) ليس إذن سوى الملاك حارس بوابات الموت.

يظهر غابرييل حيًّا كما يجب أن يكون المرء المتّزن: متزوّج، ناجح في عمله كمعلّم، ويعمل كاتبًا أحيانًا، يعرف كيف يزجي وقته مع أصدقائه، لطيف، دقيق، محبوب، يُشعر الآخرين براحة البال، مهتمّ بهندامه، وقد يبالغ في الاهتمام بثيابه وحسن ترتيبها (هو الوحيد الذي يرتدي جُرموقًا من بين الضيوف). إنّه باختصار يُرسَم هنا، ويهمّه أن يرسم نفسه، تحت غلالة مبهرجة غنيّة الألوان. لا نعرف الكثير عن الأمكنة التي يذهب إليها، ولكنّه يقول إنّه يذهب في رحلة سنوية مع أصدقائه إلى فرنسا أو بلجيكا أو ألمانيا. إنّه يغادر دبلن (التي كان ج.ج. يكرهها ولا يستطيع إلاّ أن يفكّر فيها طوال حياته) إلى مكان آخر، من أجل التغيير، ومن أجل التواصل مع لغات أخرى[1]، فهو يتحدّث الإنجليزية ويتعمّد ألّا يعرف الكثير عن الغيلية (الأيرلندية) التي يشعر، أو يصرّح، أنّها ليست لغته. هذه الغلالة المبهرجة، ولكنْ الرقيقة جدًّا، هي غابرييل حيًّا. إنّ كيانه مشدود إلى مرجعيّة الواقع الصّلب، وهو يعيش كامتداد لهذا الواقع، كجزء من كمالٍ متصوَّر تصنعه العلاقة بالآخرين، وكدور

(1) درس جويس علم النحو والبلاغة وهو يتحدّث الأيرلندية، الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، والنرويجية.

منتَظَر يمكن الثقة فيه بناءً على أخلاقيات الوجود المتعارف عليها بينهم.

الصورة تنهار. الخطيب البارع، المتحذلق في بعض المرّات، يسائل نفسه فيكتشف أنه لم يفعل سوى الوقوف «بين العامّة متصوّرًا شهواته الخرقاء شيئًا مثاليًّا». الزوجُ الذي يحتفظ بأرقّ اللحظات سريّةً مع زوجته يعرف أنها تستلقي إلى جانبه ولكنّها أوصدت قلبها منذ زمن بعيدٍ على صورة شخصٍ آخر. المهتمُّ بنفسه، المُعْتَدّ، يتكشّف عن «أبله جدير بالشفقة»، لا يملك أمام مرآة وعيٍ مخجلٍ إلّا أن يُدير ظهره للضوء لكي يخفي «العار الذي يحرق جبينه». لا يتطلّب الأمر سوى ليلةٍ واحدة لتنهار حياةٌ كاملة تملؤها البهجة والأدوار المتكاملة، كما لو أن الحكاية بأسرها تمهيدٌ لطيف لهذا السقوط، أو ربما الصعود، لكي يجد نفسه وحيدًا. إنّ النهايات السيّئة لمحاولة غابرييل أن يتواصل مع الآخرين لا بد أن تؤدي إلى افتراض أفضليّة العزلة، ويمكننا أن نرى كيف يعمل سوء الاتصالات وفشلها، ولكنه يتكرّر ويعمل في نفس الوقت كخيطٍ ناظم. يحدث ذلك عدّة مرّات: (1) مع ليلي التي تنتهي إلى إخباره بأن «جميع الرجال» لا أمل فيهم؛ (2) مع السيدة إيفورز التي تسائله عن تواصله مع تراثه ولغته وتكاد تتهمه بخيانة القضية الوطنيّة، وإن غلّبت الدعابة على حديثها؛ (3) مع ماري جين التي يتظاهر بالتواصل معها ولكنّه لا يكاد ينصت لها على البيانو وهي تعزف مقطوعتها الأكاديمية؛ (4) مع غريتا، زوجته التي يحتفظ بتواصلٍ عميقٍ معها يختزله في لحظات ذات ألق

(«تلك التي لم يكن أحدٌ يعرفها ولن يعرفها أبدًا»)، ولكنّه ينتهي إلى الصمت، ليعيد اكتشاف علاقته بها مرّةً أخرى. يعيش غابرييل مع الجميع تواصلًا مموّهًا يكمن الانفصال في عمقه، إنهم جزر معزولة في أرخبيل يسمّى الحياة، هذا ما يدركه غابرييل في جزيرة لم تكن في الواقع جزيرةً بالرغم من اسمها، ما يدركه في الفتاة ليلي التي لا تُحسن التفكير في الرجال، في الصديقة إيفورز التي لا تقدّر صداقته كما يجب، في الموسيقيّة ماري جين التي لا تقدّم ما يفضّله من أنغام، وفي زوجته التي يكتشف أخيرًا أنه لا يعرفها كما كان يعتقد.

قد تبدو مشكلة غابرييل معتادةً لا تثير الكثير من الحيرة أو تتطلّب الكثير من الانشغال، ولكنّها تصبح بالنسبة إليه مصدرَ تلوّثٍ وإزعاجٍ غير متوقّع لسلوكٍ نمطي، لأنه ينتهك القاعدة الوجودية، أو الأخلاقية، الأولى: على المرء أن يكون كما يُعتقَدُ أنه سيكون. ولكن هذه القاعدة تخدع غابرييل نفسه بالرغم من أنه يحقّقها في نظر الآخرين، فهو يتصرّف كما يرام، ويلبّي رغباتهم، ولكنّه لا يجني في المقابل أكثر من الإهمال، الإهمال تحديدًا وليس إنكار الجميل، يصبح «تحصيل حاصل»، جزءًا مكمِّلًا لمشهد عام، إنّه غير ضروريّ إلاّ إذا تعلّق الأمر بما يجب عليه أن يؤدّيه لصالح الغير، حتى الخطبة التي هو نجمها الوحيد لا تتعلّق بشيء حقيقيّ أكثر من المجاملة المتحذلقة، إنّه دورٌ يجب أن يؤديه لكي يحافظ على مكانته الصامتة. ومعظم «الأموات» عبارة عن مساءلات متواصلة، إنّه يطرح السؤال نفسه عن الخطبة ومدى إرضائها للحاضرين، عن المقطوعة الموسيقية ومدى نغميّتها، عن الصداقة ومدى تقدير

الآخر فعلًا لها، عن..، عن...، وعن حقيقة زوجته ومدى علاقتها به، وأخيرًا عن نفسه وما إذا كان من الطبيعيّ أكثر أن يكون في العالم الآخر، أن يَعْبُرَ المرآة لينتقل إلى ذلك الوجود المتفلّت المرفرف. إنّه يختار الانسلاخ من «العالم الصّلب نفسه الذي رعاه هؤلاء الأموات ذات مرة وعاشوا فيه، كان يذوب ويتضاءل».

تعمل المرآة كناظمٍ، أو كقادحٍ، يُذكّر غابرييل بإمكانية العبور مستعينًا فقط بانعكاس صورتي امرأتين، أمّه (سبب وجوده) وزوجته (سبب استمراره)، تظهر صورة أمّه وهي «تنتصب أمام مرآة طويلة، ولديها كتاب مفتوح على ركبتيها»، هذا ما يفعله هو، يعيش على الكلمات، معلّمًا وكاتبًا وخطيبًا. ثم صورة غريتا أمام المرآة وقد استدارت عنها ببطء «وسارت نحوه على امتداد عمود الضوء»، إنّ غريتا تستدير عن المرآة فلا يتمكّن من الاحتفاظ بالقاعدة الوجودية، أو الأخلاقية، الأولى، هذه المرأة التي يراها في الضوء لا يُدرك حقيقتها في العتمة، يتبيّن له أنّها أخرى في اللّيلة الأخيرة من السنة، في اليوم الأخير من الحياة كما اعتاد أن يعيشها، ما الذي تبقّى إذن؟ لا شيء فعليًّا، لولا أن «حانت منه التفاتة لمرآه بالكامل» أمام المرآة المستطيلة، ترك المرأة خلفه ووقف أمام المرآة كأنه يرى نفسه للمرة الأولى.

إنّ قصّة البيت الكئيب الكالح تبدأ على نحوٍ، وتنتهي بآخر مختلفٍ تمامًا وغير متوقّع، فغابرييل الذي لم يكن يهتمّ سوى بنفسه، واثقًا من أنّ كلّ شيء على ما يرام، ينتهي أخيرًا إلى أن لا يهتمّ بشيء

أبدًا، غير واثق من أيّ شيء أبدًا، ويصبح الانفصال بالموت أكثر من مجرّد استعارة. كان حيًّا، كما اعتاد أن يفهم معنى الحياة، ولكنّ روحه كانت («تقترب من تلك المنطقة التي تقطنها حشود واسعة من الأموات. كان واعيًا، لكنّه لم يستطع أن يعقل وجودها المتفلّت والمرفرف. كانت هويّته تتلاشى في عالم رماديّ غير محسوس»). يبدو ج.ج، من خلال غابرييل، ثَنَويًّا، وهو يهيّئ ما يستطيع من مظاهر الحياة ليقلبها بهدوء، ويدفعنا إلى الوقوف على الحقيقة التي يريدها: «الحياة تتخلّل الموت». إنّ غابرييل وغريتا ينامان صباحًا، وكلّ منهما يرجو للآخر ليلةً سعيدة، بعد أن يتجاور عدد من الثَّنَويَّات ويتلامس دون أن يتفاعل: صباح # مساء، رجل # امرأة، فتاة # عجوز، شابّ # مُسنّ، شغف # إهمال، يقظة # نوم. هذه هي رغبة غابرييل الحقيقيّة إذ يحتفي بالحياة حول الموت، ويجعل من ثنويّة حياة # موت كتلةً واحدةً متّصلة لا معنى فيها للتناقض بين الحضور والغياب، هل نقول «حضورٌ مطلق»، أو ربما «غيابٌ مطلق». لا فرْق، يصبح الغياب مرادفًا لكون الجسد حيًّا، متكلّمًا، قادرًا على إصدار صوت، وهو لا يفعلُ شيئًا سوى التوافق مع حضور/ غياب أجساد أخرى حيّة ومتكلّمة قادرة على إصدار أصوات شبيهة، تضحك أو تُحدث صخبًا أو تقرقع الكؤوس أو تتنهّد أو تعزف الموسيقى: كلام # صمت، صخب # صمت، موسيقى # صمت. هذه الأخيرة (الموسيقى) هي الصوت الذي يستدعي صمتًا كاملًا. للصوت أشكال كثيرة، لكن الصمتَ واحدٌ. للألوان أشكال كثيرة، لكن الشحوب الذي يعتريها يدمج بين نِسَبِها

في نهاية المطاف، وإذا تجاوزنا النّغميّة (التي لا يجدها غابرييل في كل عزْف) فإنّ الموسيقى تشغل حيّزًا واضحًا بين الأموات. لقد تتبع هوغارت وباويرل في كتابهما الصغير[1] ارتباطات ج.ج. الأوبرالية في رواية «يقظة فنيغان»، وهما يشيران إلى أنه يتحدّر من عائلة من مغنيي الأوبرا، وكان يُعرف في دبلن- حتى بعد موته- بـ«جويس المغنّي»[2]، وقد تربّى على تقاليد أوبرا القرن التاسع عشر، هذا ما يجيب عن سؤالٍ حول تلك القائمة من «أولئك المغنّين العظماء»، يقول غابرييل، «الوجوه الغائبة التي نفتقدها هنا الليلة» والتي جعل غيابُها العالمَ أقلَّ رحابةً: تييتجينس[3]، إيلما دي مورزكا[4]، كامبانيني[5]، تريبلي[6]، جيوغليني[7]، رافيللي[8]، أرامبورو[9]. إنّ ألن فريدريك شوكلي يتأسّف في: «موسيقى في الكلمات»، لعدم وجود ما يكفي من اهتمام بتداخل كتابات جويس بالأشكال والمفاهيم الموسيقية[10]، عندما نقرأ مثل هذا التحسّر الذي لم يتردّد

(1) Hodgart, Matthew J. C. & Ruth Bauerle; Joyces Grand Operoar: Opera in Finnegans Wake, Universuty of Illinois Press, 1997.

(2) Ibid. p.6.

(3) تييتجينس Tietjens: مغنية أوبرا ألمانية الأصل (1831-1877).

(4) إيلما دي مورزكا Ilma de Murzka: مغنية أوبرا من كرواتيا (1834-1889).

(5) كامبانيني Campanini: مغني أوبرا من إيطاليا (1845-1896).

(6) تريبلي Trebelli: مغنية أوبرا فرنسية (1836-1892).

(7) جيوغليني Giuglini: مغني أوبرا إيطالي (1825-1865).

(8) رافيللي Ravelli: مغني أوبرا إيطالي (1776-1858).

(9) أرامبورو Aramburo: مغني أوبرا إسباني (1840-1912).

(10) Shockley , Alan Frederick; Music in the Words: Musical Form and Counterpoint in the Twentieth Century Novel, Ashgate Publishng Limited, England, 1988. p. 127.

شوكلي عن التصريح به، نُدرك جيّدًا أنّ القرّاء الذين يحبّون ج.ج. يعرفون هذا الارتباط؛ الاستغراق في فهم المكوّن الجويسي يضعنا أمام هذه العتبة: لا يمكن قراءة نصٍّ له في كثير من الأحيان دون معرفة ما يضمّنه من إلماعات موسيقية، الكلمة هي الوجود المقروء للنغم، يذكّرني ذلك- على نحو سريع- بشغف الحكّائين وهم يقرؤون سجعًا عربيًّا قديمًا ويتوحّدون به/ معه (هل كان السّجع ضرورةً إيقاعيّة أم تعويضًا قوميًّا عن غياب الشعر. كلاهما!)، لكن، الموضوع مختلفٌ هنا تمامًا، فسرود ج.ج. لحنٌ أُطفئت نبراته لكي تتأقلم مع البصر، لا مع السَّمع، أو يمكنكم- إذا شئتم- الاعتراف بأنّ نصوصًا جويسيّة سرديّة لا يمكن قراءتها دون الإمساك بإيقاع شعريّ مّا مثل حبل من السماء.

***

عندما عبر غابرييل وغريتا جسر أوكونل، (كان ج.ج قد تعرّف إلى نورا للمرّة الأولى على أحد الجسور) بعد أن أطلّا على تمثال دان Dan الأبيض («أرى رجلًا أبيض هذه المرة»)، كانا قد تركا العالم الملموس وراءهما. أمامهما سوف تصبح الموجودات شبحيّةً. لا بدّ أن تكون شبحيّةً بامتياز لكي تكتمل القصّة التي بدأت صلبةً، وإلاّ فإنّنا لن نخرج من وعاء العسل الأيرلندي الخالص، أليس شرْطُ كلّ حكايةٍ هو أن تنتهي بطريقة ما؟ بالنسبة إلى كلّ ساردٍ «لا وجود

يستثني ألن شوكلي كتّابًا مُهمّين مثل وورثينغتون Wirthington وهوغارت Hodgart وكذلك بوين Bowen الذين تعتبر مقالاتهم وكتبهم نموذجًا لهذا الاهتمام.

لحقيقة خارج الحكاية... من يفرض حكايته يفرض حقيقته لأنه يكفل لها البقاء»[1]. ج. ج. فرضَ الحقيقة التي ضمّنها «الأموات» بأن قَلَبَ الحكاية على وجهها فانتهت حيث كانت يجب أن تبدأ.

كانت الساعة الثالثة، على أبعد تقدير، ربما الثالثة والنصف، وضوء الصباح الذي لا يكاد يبين في الأفق، لم ينتشر بعد، يوقظ غابرييل البوّاب الذي كان يغفو على كرسيّ ذي حواف تغطّيه، يشعل شمعة لا تكاد تصمد أمام ظلام الفندق، وهي تتداعى وتسيل، حتّى إنّ غابرييل يطلب منه إزالتها، مكتفيًا بضوء الشارع الذي يتسرّب من النافذة، إننا لا نُقبل على صخب الحياة، بل نستسلم للصمت ونحن نراقب ندف الثلج وهي تلامس زجاج النافذة، تنقره دون صوت، تربّت عليه في صمتٍ وتتابع سقوطها.

ماذا يعني أن تكون حيًّا أو أن تكون ميّتًا؟ بإمكانك أن تقرأ قصّة «الأموات» لج.ج. على النحو الذي تريد، تستطيع مثلًا أن تستسلم للسهولة، وأن ترتضي حكائيتها. لكن ثمة طرقٌ عديدة لقراءة هذه القصّة، يعتمد ذلك على مَن يقرأ، فعدد طرق القراءة يكون أحيانًا بعدد القراء أنفسهم. ينسحب هذا الأمر على نصوص قليلة؛ قليلةٌ هي النصوص التي لا يمكن الجزم بنهايتها، أو بنهاية واضحة لها، لا في ما يتعلّق بخطّ السرّد وخطّته، بل في تأمّل ذلك أثناء/ بعد القراءة. إنّ اللحظة التي يتهيّأ فيها القارئ لإضافة أيقونة أخرى إلى سجلّه

(1) شوقي العنيزي، «مكر الحقيقة وصراع التخييلات»، في: «جورج أمادو، ميتتان لرجل واحد»، مسكيلياني، تونس، 2018. ص 116.

الذي لا يكتمل من قراءة القصص والروايات، من ترتيب السرود، من الإقبال عليها، ومن محبّتها، أو العكس، هي اللحظة التي تنتهي فيها القراءة، ما لم يعمد القارئ إلى إعادة ترتيب تفضيلاته، وممارسة أيْقنة جديدة تعنيه هو وحده.

إنّ «الأموات»، كما تجتذبنا قبل أن تنقلبَ في نهايتها على بداية لا تنتهي، «مثل روايات صغيرة لكل من كلايست، دوستويفسكي، كافكا، أو بيكيت... تشكّل معها خطًّا سلاليًّا خفيّا ومرموقًا»[1]، إنها تنتهي مثل رواية أخرى صغيرة هي «بارتلبي» لهرمان ملفل. بارتلبي يبدو نائمًا، أو يبدو ميّتًا، أو لن تعرف أبدًا إلاّ إذا لمسته وتحسّست أطرافه. غابرييل يبدو نائمًا، أو يبدو ميّتًا، أو لن تعرف أبدًا إلى إذا دخلت الغرفة في غريشام، أو إذا استيقظت غريتا في الصباح الذي لم يعد صباحًا معتادًا، ولكن هل تستيقظ غريتا ذات صباحٍ ما لم يستيقظ غابرييل نفسه؟

(1) جيل دولوز، «بارتلبي، أو الصيغة»، في: هرمان ملفل، «بارتلبي، الكاتب العمومي»، ترجمة: عبدالمنعم المحجوب، دار مسكيلياني، تونس، 2019.

جيمس جويس

الأموات

تمثّل «الأموات» لجيمس جويس وليمةً تحدث في منزل على جزيرة أوشر الأيرلندية بعد فترة قصيرة من دخول أوروبا شفق القرن الطويل. المضيفتان هما الأختان المسنّتان وابنة أختهما، أما الضيوف فمن الأصدقاء المقرّبين والأقارب؛ إنه وقت عيد الميلاد، والجليد يتساقط في جميع أنحاء أيرلندا؛ إنه يتساقط بسرعة على تماثيل ليست بعيدة عن هذا الحفل، على أمواج البحر، وعلى المقابر، بينما يجلس المدعوّون على طاولة عامرة بما لذّ وطاب، وعلى الرغم من بهجة الاحتفال، فإن المشهد يبدو شبحيًّا للغاية، لأن الماضي يطارد هذه الطاولة.

إن الشبح الذي يكمن وراء هذا العيد هو، بالطبع، الجوع العظيم الذي دمّر الفقراء في أيرلندا بين عامي 1845 و1850. والأشباح التي تجلس إلى طاولة الأختين تمثّل مختلف تناقضات المجتمع الرأسمالي، لقد فُرِضت المجاعة على الجميع، بفعل الصراع السياسي، ومثل هذه الحالة المصطنعة هي الّتي كانت تشكّل جوهر الإمبراطورية وما تزال.

إن الأموات هم أشباح البشر الذين ينامون في الشوارع، الأشباح الذين يُبعَدُون عن المدن الغنيّة إلى أمكنة أكثر فقرًا، وهي الطريقة ذاتها التي تم بها فرْض اليأس والجوع والتشرّد على عصرنا الحالي.

تشارلز موديدي

ناقد ومخرج سينمائي

ISBN: 978-9938-24-057-3